حواس زهرة نائمة

حواس زهرة نائمة

مجموعة قصصية

د. سامية غشير

حـواس زهـرة نائمـة

مجموعة قصصية

اسم الكاتبة: د. سامية غشير
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية للنشر والتوزيع
تصميم الغلاف: محمد سعد
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
رقم الإيداع: ١٤٥٧٧ / ٢٠١٨
طبعت بمطبعة الشروق

حقوق التوزيع

Facebook.com/arabiclibrary2017

إهداء:

لكلِّ زهرةٍ لا تزال تغرس حواسّها في دنيا الوجع

(سا.. مي.. ة)

تقديم المجموعة القصصيّة (حواس زهرة نائمة)
بقلم الكاتب والناقد العراقي "عامر الساعدي"

حواس زهرة نائمة للكاتبة الدّكتورة سامية غشير/ بين روحيّة اللّغة والسّرد القصصي.

لأنّني أؤمن بأنَّ الكتابة هي نزف مجموعة أفكار تخرج شعوريًّا منَّا كأننّا نطلق حمامة للفضاء حينما نفكّ أسرها كي تحسّ بحرّيتها، هكذا هي الكتابة حمامة ويجب أن نطلق سراحها نحو الفضاء بعيدًا في الأفق، أمّا ما يدور في خلدي من أسئلة كثيرة ومنها كيف للإنسان أن يكوّر تلك الحروف بفكرة واحدة ليجعل منها، نصّا، قصة، رو اية، أو أي جنس أدبي آخر.

إنّ الأدب بحر واسع المداد، والكاتب أو الشاعر ربّان سفينة وهو القادر على تسيرها حسب مقوّمات وضعت تحت إمرته، مثلا لخريطة أو البوصلة، وهذا أقلّ وصف لما أريد الوصول إليه بكلامي هذا.

فالكاتب والشّاعر عليه أن يجهزّ أدو اته التي تُساعده على صياغة نتاجه الذّي شدّ العزم عليه، وجعل الفكرة من ضمن مقتنياته كي لا تخرج ولا تذهب بعيدا.

العتبة الأولى الغلاف تبدأ من "العنوان" لتكون متصلّة بالكتاب، وأهمّ ما فيها الدّهشة، أي أنّ العنوان يعدّ مفتاح الولوج إلى أي نصّ أدبي، يختزل جملة الدّلالات الظّاهريّة والرّمزية التي يكتنفها النّص.

كذلك القصّة تحتاج إلى استعارة لبناء القصّة وسبكها بصورة جميلة لتعطي روحيّة القصّة، فالقصّة إذن حكاية، والحكاية تتطلّب سماع لنهايتها، كذلك القصّة تصوير؛ أي التّصوير الدّاخلي بداخلها وتماسك اللّغة، نعود ونقول القصّة سرد بشرط أن تكون متصّلة ببعضها البعض، وإن خرج أيّ موضوع منها صارت باهتة دون معنى، وهنا يُمكن التّأكيد أنّ القصّة أصبحت خارجة عن نمط القصّة المتعارف عليه.

بما أنّنا الآن في انفتاح الأدب وتصنيف الأجناس الأدبيّة ممّا جعل للقصّة أهميّة كبيرة في المشهد السّردي، نظرًا لتطوّر المواضيع بسبب الظّروف أو غيرها، لكن يبقَ الاعتماد على ثقافة القاصّ في وضع الفكرة واللّمسة الخاصّة به لجعل القصّة ناطقة تتحرّك بفكر المتلقي.

إذن الكتابة ترويض للنّفس أو بالأحرى هي رياض للنّفس حيث هي محاكاة الذّات أي قد تكون متنفّس ذو هواء نقيّ؛ لأنّها تعبّر عن ما هو موجود بداخله، فالكاتب هو وحده صاحب الشّروع الحقيقي، وهو يُمسك أرضيّة الموضوع ليُدير الموضوع حسب رؤيته.

الأدب الجزائري حافل بالكثير من الإبداع والتّميّز، الكثيرون برزوا على السّاحة العربيّة، فالجزائر بقيت محافظة على لغتها الأمّ، حيث أنّها بقيت متمسّكة رغم ما مرّت به من احتلال، إذن هناك علاقة بين الاثنين.

اليوم تطلّ علينا واحدة من الأديبات الجزائريّات الدّكتورة (سامية غشير) التي أثبت وجودها خاصّة بالقصّة، واهتمامها بهذا الجنس الأدبي المهمّ لاحتوائِه على مقوّمات فكريّة كبيرة وكثيرة ووجود لغة السّرد كما قلت سابقًا، وأنا اليوم أتصفّح منجزًا مهمًّا يُضاف إلى المكتبات العربيّة مجموعتها القصصيّة (حواس زهرة نائمة)، فعنوان المجموعة مدهش وصادم، يأخذ القارئ ليفتح الكتاب بكلّ حريّة ليستمع إلى محتوياته، فالتنوّع القصصي مطلوب شأنه شأن أي جنس أدبي آخر.

لنبتعد قليلًا عن مدح الكاتب كي لا يؤثّر على شخصيته بدل التّأثير على النّص أو محتوى النّص، فالأهمّ التّركيز على ما أنجزه الكاتب، والقصديّة التي أراد الوصول إليها، وهل وصل لمبتغى حقيقي ليجعل القارئ ممسوسًا بما كتب.

هل الكلام دغدغ مشاعر المتلقي ليحسّ أنّ المكتوب هو المحسوس؟

سلفًا أقول إنّ المتلقي هو الحاكم الشّرعي الذّي يقرّر مدى جماليّة وحسيّة المكتوب، حسب إدراكه ووعيه.

قد أختلف بعض الشيء بقراءتي هذه وأبتعد عن القراءة الكلاسيكيّة في شرح ماذا قال الكاتب، وماذا تحدّث وماذا يُريد، المهمّ بالأمر هو الكاتب الجيّد الذّي يجعل من النّص مهما كان جنسه يصل للمتلقي بسرعة، وبصورة سهلة كي يستطيع المتلقي العادي والنّخبوي الهضم بسهولة من دون أن يتعسّر، نعم وأنا أتصفّح القصص أجدني أُسرع للأخرى أتعامل مع روحيّة وحسيّة القصّة لوجود لغة السّرد بداخلها، فكلّ قصّة وكما هو معروف بعنوان مختلف، ويُمكن القول أنّها عتبة تستحق الوقوف عندها، كذلك يسهل الاسترسال بعدها، فالكاتب الجيّد يُمسك بالفكرة ويضعها داخل عقله حتى يُنهي ما تصوّره، بما أنّ القصّة جنس أدبي مهمّ جدًّا حسب ما أراه، وأجد من الأصح أنّ القصّة تحتاج أفق أوسع لذا فإنّ الكاتب مكلّف بأن يجعل من القصّة روحيّة التّحريك؛ أي عليه أن يجعل المتلقي يعيشها بكلّ أحداثها وشخوصها، كذلك العامل النّفسي مهمّ جدًّا بالنّسبة للكاتب ويتبعه المتلقي، ليكونا توأمين مشتركين معًا، فلولا الأوّل ما كان الثّاني والعكس.

من جماليات القصّة أن تجد فيها نكهة السّرد المعبّر، وإن صحّ السّرد التّعبيري القصصي الذّي يحتوي شخوصًا وأحداثًا كما قلنا سابقًا، فالسّرد يشدّ المتلقي أكثر، وهذا ما وجدناه بالمجموعة القصصيّة (حواس زهرة نائمة) للقاصّة الدّكتورة "سامية غشير" التي عمدت لجعل أحداث القصص فيها سرد بلغة جميلة، تكاد أن تكون بعض المقاطع صور شعريّة لكثرة الأحداث بالقصص، ومن النّادر أن تجد هكذا قصص.

عودة إلى موضوع عنونة القصص الذّي يعدّ مهمًّا جدًّا، فالقصّة التي تبتعد عن موضوع العنوان أصبحت باهتة دون ملوحة؛ أي أنّها أصبحت مقالة عادية ويمكن للمتلقي أن ينساها أو يهملها في أيّة لحظة من دون التّفكير حتى، لكن القصّة التي تنطبق عليها مواصفات العنونة، وارتباطها بالأحداث فهي القصّة التي تشبّعت بنكهة غريبة مختلفة؛ لأنّها مزجت بين الفكرة، والموضوع، والحدث، ويليها السّرد الحقيقي،كما أنّ هناك عامل مهّم آخر ألا وهو عامل الحدث الحقيقي أي "الو اقعية" للقصّة، ففي أغلب الأحيان القصّة الو اقعيّة تكون أكثر دهشة للمتلقي

.

وأخيرًا فالعناوين بهذه المجموعة تكاد لا تخلو من الصّور الشعرية من بدايتها حتى انتهاء آخر قصّة.

١- حواس زهرة نائمة.

٢- موعد الحبّ مع المطر.

٣- همس الحرير.

٤- ستائر غراميّة.

٥- خريف الذّكريات.

٦- حلم باريسي.

٧- حكاية اللّيل.

٨- أشواق تنزف في صمت.

٩- أحلام تنوح في ضبابيّة الوجع.

١٠- أوراق من ذاكرة الحياة.

١١- حروف الظّل.

١٢. رسائل الشّوق.

١٣- مدينة الأشباح.

١٤- حلم الفراشات.

تلك العناوين وحدها قادرة على صنع نص شعري ، لأن العنونة وضعتنا تحت طائلة الاختيار الأصحّ، لوجود حسّ شعري فيها، ثمّ خلق الجمال .

حواس زهرة نائمة

الوجع هو أنيسي في رحلة حياتي المليئة بالعثرات والجراحات التي كانت تتناسل يوميّا على ضفاف روحي، وحرائق الدّهر تشعلني مرارة وخسائر. حياتي كانت أشبه بالعدم وهو يغرس فيّ سهام ندوب الوجع التي مكثت أكثر في خوالجي المهشّمة، لم ينفعني وقود الأمل في أن أمتطي بساط السّعادة الذّي نسجته منذ سنين في مملكة رغباتي الأنثويّة.

أنا "نضال" حياتي أشبه بالحطام، زهرة عمري اليانعة قطفت في سجن الزّواج، كنت شابّة يافعة مليئة بالرّغبات والشّغف، حلمي أن أكون امرأة مهمّة في مجتمعي، درست بجدّ وكدّ إلى أن نلت شهادتي، تقدّم لي بعدها أحدهم للزّواج كنت سعيدة جدّا؛ لأنّ ذلك الرّجل كان مطمعًا للكثير من الفتيات، تزّوجت وكلّي أمل في أن أعيش ترف الهناءات، وأنشر متاع غواياتي الأنثويّة، وأخيط من وهج فرحي أعشاشا من ياسمين زهر البهجة، لكن حياتي كانت أشبه بطقوس مآتم الوجع، سلب منّي زوجي بهيج الأمنيات، تركني على أرصفة القهر أعزف أوتار عطر تنهداتي الصّماء، لا أحد كان يسمع بكائي الذّي افترس شغاف عيوني التي شاخت قبل أن تعبر شرفات العمر.

كان "عمر" كلّ يوم يأتيني ساكرا يفوح بأريج العطور الأنثويّة، وبقايا الكرز الأحمر يشرق من قميصه، ولمّا أسأله عن سرّ ذلك يضربني بوحشّية مريرة حتى بدت آثار تعنيفه على ملامح وجهي وروحي.

- اغربي عنّي يا امرأة السّوء، أغربي...

تواصلت حياتنا على هذا المنوال، كان كلّ يوم يحمل متاع اللّيل ويأتيني حاملًا في جسده درن العهر، ور ائحة مواويل السّكر تفوح منه، فأشعر أنّني كحمامة عذراء أعدمت في منفى ضبابيّة الوحل، فأرتحل بمواجعي المنمقّة بنفحات زعفران الرّوح.

مرّت سنة كاملة أذاقني فيها ألوان العذابات، كانت حياتي ملونّة بالفجيعة، حتّى العمل حرمت منه، كانت روحي مثقلة بنبض الانهيار، كنت يوميّا أكدّس دموعي في محبرة ألملم فيها شغاف أنوثتي التي صلبت وترملّت.

كانت والدته تنكدّ عليّ حياتي، تحرجني بتساؤلاتها المحرجة: زوّجت ابني بامرأة عاقر، ماذا فعلت يا إلهي؟ ماذا فعلت؟

أمّا والد زوجي فكان يقف معي، يمسح دموعي المنهمرة كالشلّالات: لا تبكِ يا ابنتي، غدا سيكون يوم جديد، ستتصلّح فيه جميع الأمور، لا تبكِ.

كانت أسئلتها الجارحة تعطب كرامتي، عرضتني على عدّة أطبّاء لكن دون جدوى، لقد حكمت عليّ والدته بالعجز في أن أصير أمّا يوما ما، لقد أقنعت ابنها بأن يطلقني: طلّق هذه المرأة العاقر، لا أريد أن تبقى

في هذا البيت، سأزوّجك بامرأة أخرى تنجب لي أحفادا يملؤون المنزل فرحًا ومرحًا.

لم يبال ابنها بي ولا بمصيري، رماني بعيدًا عن حياته في ليلة ماطرة، كنت وحيدةً يومها أجرّ خطواتي المتثاقلة، أبكي من شدّة قهري، لما القدر كان قاسيًا معي، أين هي أحلامي التي ربيتها في صفوتي يوم كنت مثل ياسمين الرّغبات، أحتلب من شغف الأحاجي تاريخًا للتّمرد، الآن أجد نفسي كطائر مقطوع الجناحين، طريدا لا ملجأ له.

مرّ اللّيل حزينا، وجابت "نضال" أرجاء المدينة وسهام التذّكر تطعن روحها، فاحتمت بأحد المساجد واستطاعت من خلال حضورها الدّروس الدّينيّة أن تربّي نفسها على الصّبر والتجلّد وهي تسمع النّصائح الدّينيّة للإمام "إنّ بعد العسر يسرا، إنّ بعد العسر يسرا."

استعادت " نضال" أنفاسها من جديد، وقرّرت أن تخيط من وهج عذاباتها إشراقة تتعطّر بها في شموخ مفاتن النهارات، وأن تمتطي دروب لهفتها ومرج رياحين شوقها الحبلى بأنين عثراتها، بحثت عن عمل في مجال الإدارة وأضحت تمضي أوقاتها في العمل، إلى أن صارحها أحد الزّملاء بإعجابه الشّديد، رفضت الفكرة من أساسها قائلة في نفسها: لا يمكن أن أرتبط من جديد، زواجي الأوّل كان حافلًا بالصّفعات

والخيبات. لا يمكن أن أهب قلبي من جديد لأحد، فالحبّ ليس مقدّرا لامرأة عاثرة الحظ مثلي.

مرّت الأيام منتعشة بغواية اللّحظات، لأوّل مرّة شعرت "نضال" أنّ قلبها ينبض بالحبّ، حيث أحسّت بمحبّة غامرة اتجاه زميلها "جمال"، لتكتمل قصّة حبّهما بالارتباط.

عاشت "نضال" خمس سنوات مع "جمال" في سعادة وبهجة، رزقت منه بابنة بهيّة الطّلعة أسمتها "هبة الرّحمان"، كان خرير الهوى يتفجرّ في شعلة العطاءات، ورواء الأمل يتدلّى من شجون دهشة اللّقاءات، وعذوبة تجلّي شغف التودّد الجريء، لكن كلّ تلك الفرحة تهاوت كالظّلال، فتناحرت الرّغبات وتعرّت تخوم الغياب الذّي أرسل روائحه في جفاء.

- سأسافر أمريكا يا عزيزتي، عندي عمل هناك، لن أتأخر عنكم.

تساقطت دموع "نضال" وقالت بصوت حزين: لا تغادر، لا نستطيع أن نظل من دونك أبدا.

قاطعها "جمال": لن أطيل عليكم، سأرحل وأنا أحمل في ذاكرة جسدي رذاذ سيمفونيات رائحتك وعبقك أيّتها الوردة المهفهفة شغفا وحبقا، وعبيرا ممشوقا بالألق، سأوشم على شجو خفقاتي أسارير من

فسحة ربوة التحنان يا شهرزاد روحي. ثمّ أنبت على روحها قبلا بنفسجيّة وأحضانا من عطر متورد.

رحلت يا "جمال" غادر النّور المغتوي بالضّوء المطرّز جنّات عشقي، أهلكتني الأسئلة المتصدّعة بإغراءات الغياب، وتخومه التي عزفت على مرايا جرحي أنين منافي صقيع الوحشة. فكنت على ضفاف النشوة الجريحة أستمدّ من وجعي المنتصب بقوافل الرّحيل محبرة ألملم فيها آخر ذكرى لعنفوان الشّوق الذّي كانت ذكراه تهفهف على شرفات بهجتنا، وكنا هناك نحملق في خبل الضوء نخيط منها حلما، سحرا تماهى إلى الهبوب، تدفقت شغاف اليتم المصلوب على رياحين فؤادي الذي انفجر تدفق، ترمل، وتوهج كهشاشة حالمة يعبر مواسم الزهو لينتصب في منافي الظّلال.

كانت ابنتي حبيبتي "هبة الرّحمان" فاكهة روحي التي أتلذّذ بها كلّما عربدت ليالي العذابات تنهش روحي وتفرشها بالورود التي خاصمت نداها واستسلمت لرماد الاحتراق. كنت كلّ مرّة تسألني "ماما، أين بابا؟ أين بابا؟ أين ذهب؟

فأجيبها: سيأتي قريبا حبيبتي، لقد وعدنا بذلك.

ثمّ أغدق عليها من حناني الفيّاض فتنام على صدري كالملاك البريء، أمّا أنا فأرحل بذاكرتي لأتلمس ذكرياتي الذّهبيّة المنتعشة بمتاع السّهرات.

كانت رسائله تصلني بين الفينة والأخرى فتطرزني حبب انتشائه وتتماهى وتتوحدّ مع جسدي فتغرق روحي في هيف الغوايات "يا حبيبتي، لقد سرقت منّي الحياة في هذا الفضاء، الذي سلب مني أوقات الإبهار التي كانت تتمتّع بها عيوني وهي تتوقد دفئا وجمالا، ما أصعب مرافئ الغربة، كلّ يوم أتوسدّ أحزاني، وصدى الوحشة يرتّل في داخلي أنين يفرخ أكثر على جداريّة فؤادي الذّي استسلم للسّهاد، سآتيك يا منيّة الهوى، فقريبًا سيرسو عُباب فراقنا وتعود الأيّام الغيداء لتضفي بخور غواياتها وينسل عنفوان الفرح فينا، يلملمنا بزخاته الهيفاء. قبّلي فراشة روحي، كوكب شغفي " هبة الرّحمان" قبلات تترجمها أنفاسي المعطوبة بعبث الأنين.

كنت أنظر إلى حبيبتي "هبة الرّحمان" وهي تلهو بدميتها التي كانت آخر هدّية منحها إيّاها والدها، نظرت إليها ثمّ تقدّمت نحوها واحتضنتها بعنف، تأملتني والدّهشة تستعمر روحها البريئة: ما بك يا أمّي... ثمّ مدّت يدها المغسولة بماء الياسمين ومسحت دمعتي التي انفجرت تغسل أرجاء الغرفة.

- لا أريدك أن تبك بعد اليوم يا أمّاه، أنا معك. سأغمرك بدرر حبّي الفيروزيّة، سأرسم على أخاديد شفاهك فرحا جديدا.

- غدا سيأتي والدك يا حبيبتي من أمريكا، سيعود الشّجن من جديد ليحتل حياتنا لا ضجيجا بعد اليوم لصخب اليأس، سنغترف من جنّات النّور المسقى بالصّبابة، سنبني حلاوة الانتشاءات على شرفات فرحنا.

جاء موعد اللّقاء مثقلا على غير كعادته كأنّه ينبأ بموعد الرّحيل الأخير، افترشت الأرض رياحا اقتلعت حنان الأزهار والأغصان، وكانت الأمواج تتصارع فيما بينها وهي تقذف وجع البحر الذّي تراخى لأفول زرقته، أمّا الوجوه فقد استسلمت في غفوة لحشرجات التيه.

ذهبت إلى المطاروهي مشتعلة وجدا وهياما، وكانت معها ابنتها "هبة الرّحمان" تحمل دميتها وهي ترتلّ نشيد الاشتياق.

انتظرت "نضال" كثيرا حتى فرغ المطار من النازلين، تدفقت الأسئلة المبتورة إلى نفسها: أيّها الجوى المبتور بجراحات الرّحيل، أما عاد ضوؤك يتدفق سحرا في كواكبي. أنا والوجع صرنا أكثر توحدّا في خرائط الجرح، نتلمس وهن الرّوح وننسج حبرا من خبل الانهزام.

عادت إلى منزلها تتملكها عبرات خيبتها، استلقت على مداد وجعها، وخطّت في سبات رهيب، فجأة دقّ هاتفها رفعته مسرعة: جمال... جمال... جمال.

- هل هذا رقم منزل جمال؟

- نعم.

- متأسفين يا مدام، زوجك عطاك عمره، لقد توفي في الانفجارات الإرهابيّة.

- ألو من معي؟

- أنا صديقه "بهاء"، هذا الانفجار خلّف عدّة ضحايا مع الأسف زوجك كان منهم.

سقطت السّماعة أرضا، مستحيل أن يموت "جمال" مستحيل، لا، يا إلهي، لماذا " جمال"؟ لماذا؟

التفتت الطّفلة إلى والدتها واحتضنتها بقوّة وهي تبكي: عد يا أبي.

نظرت " نضال" إلى شرفة نافذتها التي غرست على أناملها ورودا من عبق الأريج السّندسي، تأمّلتها جيّدًا فرأت تلك الورود اشتهت الاحتراق وهي تئن وسط كومة من الأشواك التي نبتت في شموخ، تعالت ضحكاتها وهي تعانق الأنين، وصرخت بأعلى صوتها: الآن أنا آتية يا "جمال".

موعد الحب مع المطر

" أتعلمين أيّ حزن يبعث المطر؟

وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر؟

وكيف يشعر الوحيد فيه بالضيّاع؟" – بدر شاكر السّياب-

الشّمس تخلع تواشيح البهاء وتهرع حانية للهبوب، لتمنح للمطر تذكرة كتابة قصّة مواسم عطره...

هو المطر الشّفيف يأتينا مرتشفًا بقبل السّناء، ليمسح على شغاف تضاريسنا آثارًا من وهج قرمزي يتلوّن في متاع ليمنح الكون قرنفل الأحلام الزمرديّة.

تنام بين تراتيبه تجاويف الصّبا المغنّج بروائح ذهول الوقت الذّي كان يرنو إلى مدائن من ندى البهجات...

يفتح أسرار ذكرياته المتوقدة في كبرياء، قصص تنام في خيال الزّهو المرنّم، موشومة بحبر اللّقيا وجنون التّحنان وشلّال حبور اللّحظات.

على صفحات محرقة التّاريخ انساقت الذّكريات في دلال، وتمدّدت على مرايا المطر تعتصر حبابًا لذيذًا، وتدفقت كأنشودة غجريّة تقذف شذى أوتارها، فتنبت زهرًا بهيًّا.

تكلّم المطر في ارتعاش شبقي: أتذكر روايتي المخمليّة؟ أتذكر طقوس العشق التي وهبتها لعابري مراسيم حضوري.؟

فتجيبه حببه في انتعاش: نعم على نايات صخبك كانت تقام مباهجَ من السّحر المتدفق، لقد شهدت حكايات مواسم منقوشة بحرائق الهناءات، وتدفق النبضات، وارتعاش روح السّكرات...

إنّها حكاية الأمل المتجلّي على أهداب النّوى المرسوم بعبق إغواء النّهارات.... حكاية تغتسل عبيرًا زاخرًا بدفء الوصال وتورّد الجمال وتبرّج الخيال.

توردت على شرفاته حكاية من شهد حلاوة الأرواح المسافرة في رغد النشوات تخيط من أنامل اللّحظات متاعًا من هيف الضّياء.

كان "لؤي" يقف على عتبات الطّلوع، يمدّ يديه في انحناء لقطرات المطر التي تصببت بنفسجًا مترقرقًا في سماوات الرّوح، كان في قرارة نفسه يدرك تمام الإدراك بأنّه في موعد مع المطر الذّي رسم ذلك الحبّ ونشر بريقه في سماء العشّاق، وأدار عقارب الزّمن وعاد بذاكرته إلى الوراء وخاصّة في موعده الأوّل مع المطر، لقد أخذ الفتى يقصّ على نفسه حكاية حبّه المجنونة مع أروى تلك الفتاة المصنوعة من المطر حيث أحبّها في يوم ممطر، وكان المطر مؤلف قصّة حبّهما ومخرجها، آه من تلك الذكريات... آه من ذلك الحبّ الجارف... لقد أخذ يقصّ على نفسه أطوار الحكاية: لقد كنت مارًّا من ذلك المكان ولم أكن أعلم بأنّ المطر سيضرب لي موعدا مع الحبّ، وإذا بتلك الفتاة المطريّة تمشي في

الشّارع وحيدةً كئيبةً وكأنّها طائر حزين فقد صوته المغرّد فشدّتني إليها كآبتها وقلت في نفسي: لا يمكن أن يكون المطر سببا في تلك الكآبة إنّ المطر يرسم طريق الحبّ والسّعادة الأبديّة، لا يمكن أن يكون المطر ظالما. اقترب ذلك الشّاب من تلك الفتاة الغامضة وسترها بمطريته وقد كان ذلك بداية الحبّ، أخذت تدور عدّة أفكار في ذهنه كيف يمكن لفتاة بمثل هذا الهيف والجمال الخلّاب أن تمشي حزينة في شارع يهتف لقدوم المطر، استجمع ذلك العاشق الولهان شجاعته وقال لها: لماذا أنت كئيبة ألم يعجبك قدوم المطر؟ أخذت الفتاة مسرعة في دربها لا تدري بالضّبط ما قال ذلك الفتى ولا تعرف من يكون. تبعها مهرولًا وكأنّ الحبّ ناداه هذا موعد حبّك هذا عنوان سعادتك أجابته بهدوء من تكون أنت؟ أخذت الأفكار تتصارع في ذهن لؤي ولم يدري ما يقول قبل أن تنطق شفتاه بصوت شاعري أنا رسول المطر، لقد كنت اليوم جالسًا في منزلي وفجأة زارني المطر وبعث لي رسالة تحوي كلمات رومانسيّة: لقد جاء موعد حبّك وأشار لي على هذا المكان، لقد قال لي أنّ شمس حبّك ستشرق في ذلك الشّارع. قالت له أروى: لا تغريني بكلمات المطر المعسولة، قال لها لماذا أنت متذمرّة من المطر، هل جرحك؟ هل سلب سعادتك؟ قالت والدّموع تنزف دمًا المطر سرق حبّي، سرق سعادتي، تعجّب لؤي وقال: كيف يمكن لملاك كالمطر أن يسرق سعادة إنسان؟

قالت أروى: منذ خمسة أعوام كنت أمرّ على هذا المكان الذّي أعدمت فيه روحي... ومضت تسابق الخطوب بعد أن تركت آخر تعاويذ الألق.

ارتشف الشّاب عطر الفتاة الغامضة الذّي يشبه البيلسان وسار تائها في قصور الأحلام واشمًا على صدره بداية عهد جديد.

مضت الأيام تمتصّ وميض المطر، ورسمت قطراته أغاني خفق البسمات المتناثرة على أرصفة البهاء، والجموح الذّي انتشى على ستائر الأفئدة.

كان لؤي يجوب شوارع جنون الشّغف يفتّش عن تعويذة حبّه، عن آخر عطر تنفسته أوردته، مخاطبًا نفسه في لهفة جريحة: أين فتاتي؟ أين فتاتي؟...

يسير كلّ يوم ضائعا وسط كومة من الأسئلة الموجعة، وضحكات المطر الغنّاء التي تغازله بدلع مثير فلا تنثر على أعتاب يقينه إلّا الظّلال.

أخاديد الرّحيل متمدّدة على الشّوارع البخاريّة التي تصاعدت أرواحها تهمس جنّات من المستحيلات، فلا تستشرف إلّا قسمات من وجع القناديل التي انحلّت في صدر مواويل المطر.

كان الفتى الشغوف يفترش طرقات الوقت حاملًا في راحتيه هواجس أمنياته التي التحفت بظلمات الفقدان وخرائب أرخبيل أمنياته، ناثرا حمائم شغفه في لقاء ساحرة اللقاءات.

استمرّ الفتى ينسج حبائل أحلامه، ومضت اللّحظات تهزج فرح اللّقيا، وفجأةً تدفقت ورقة قرمزية من خلوة تفكيره قاطعة عليه تأمّل صخب المطروهو يُمارس عشقه على جداول الطّريق.

قرأها بسرعة منهمرة فانسكبت شموع زهوه تغمر فضاءات الأغنيات:

أنا هنا في كلّ فسحة من روحك
أتوهج كشمس مرمريّة
على مباهج تدلّل الرّغبات
وأرسل من عبق حروفي
بوحًا يغتسل جسور الأمنيات
التي تناسلت، تماوجت كالعباب
تتوقّد في جسد المسافات
التي تجمّلت بعطر الانتظار
أنا هنا أسير كالوميض
كهشاشة حالمة
كحبابة شغف
وأرسم الصّبوات
على ضفّة حلمك

جئت مشتعلًا

كوكب توهّج العطاءات

استدار خلفه فرأى شعاعا يستعمر المكان، لقد أضاءت الأرصفة بعطرها الذّي أعاده إلى زمن الشّهوات، إنّها حبيبتي، ومضى يسرق من الوقت بهجته ليمنح درزًا فيروزية لحبيبته "أروى"

جفّت كلماته، وتبعثرت خطواته، فلم تبق إلّا عيناه تختزلان نبض الانتشاءات.

قالت له: لقد منحني المطر فرصة العشق من جديد، الآن يمكنني أن أرسم قصّة حبّي على تواشيح اخضرار ورود عمري.

غمرت "لؤي" فرحة هستيريّة، ثمّ تكلّم: يا فاتنة المطر أتمنحينني بعض من السّحر حتى أنعش حياتي المشتعلة بحرائق الخيبات.

فقالت له: لقد كرهت المطر لأنّه أخذ منّي بهجة روحي حبيبي "أيهم" في يوم ماطر، كنّا هنا نزرع مواسم زهر وصالنا النديّة لكن المطر أخذه منّي، إنني أشتهي ضحكته المخمليّة، براءته التي تتفجّر على مآقي عيوني فرحًا يشبه الشّذى، أشتاق إلى حروف قلبه التي تتوردّ حمرةً ساكرةً فأتوقّد مثل أفانين الضيّاء، أفتقده...

لكن الآن فتحت ورقات جديدة في تواريخ حياتي، تواريخَ مغروسة بهدير المطر الذّي يسكن تجاويفي ويتغلغل كحدائق سندس التألق، وكياسمين الألق.

تكلّم لؤي: يا كاسحة الممرّات، أتمنحيني مساحة للعبور في خوالجك، سأنثر فيها صولجان الجمال، سأستعمر كل مسافة منك لأرسم عليها شغاف أسر مزدهر الرّواء، سأكون فيك حلم النّهايات التي تظلّ راسخة في كبرياء، تشرب من عطرك وتنام على خمائل السّكرات.

ثم دعاها إلى رقصات على نخب كاسات المطر، وشطحات فاكهة الرّوح... ومضى الأصيل يحمل على كفيّه آخر أحاجي متاع الزّهو المتوسّم.

رحلت الذكريات من ذهن لؤي وعاد إلى واقعه المؤلم وقال في نفسه: ما جدوى التذكّر الآن بعد أن رحلت حبّي وسرقها منّي المطر، سألومه دومًا على فقدان ذلك الحبّ، وبينما هو يتصارع مع ذكرياته سمع طرقا على الباب ففتحه لقد كانت مفاجئته عظيمة عقدّت لسانه عن الكلام إنّها فتاة المطر فقالت له: لقد ضرب لي المطر موعدًا معك لم نكمل بعد أطوار الحكاية، لقد جئت لأتّم اللّحظات الأخيرة من رو ايتنا "موعد الحبّ مع المطر"، فقال الفتى العاشق: ظننتك رحلت مع قطرات المطر، ظننتك سافرت إلى عالم المطر وتركتني، فقالت أروى: الحبّ

الذي رسمه المطر لا يمكن أن يموت؛ لأنّه بكلّ بساطة ساكن في قطرات المطر التي تحي قصّة حبّنا مع قدومه.

إنّه المطر سيّد اللحظات، مهندس تفاصيل اللّقاء، واهب السّحر وفتوحات نور خيالات القصص السّرمديّة، يرسم لوحات بريشة غيومه، ينثر أوراق الفناء، والعشق، والضيّاع على مدن الأمنيات، يلهم ساكري الدّجى، وعابري مرافئ الأحلام، وعاشقي أساطير المستحيل... هو المطر.

همس الحرير.

انسكب ضوء الشّمس يغمر أرجاء تلك القرية التي ارتفعت صيحات أريج الحقول وهي تنزف زهرا وعطرا شهيّا، وكانت العيون تحملق في تلك الجغرافيّة السّاحرة التي وهبتها زغاريد العصافير وهي تمطر ألحانا وأمنيات ربيعيّة سحرا مدهشا.

يخرج الأب كعادته إلى الحقل للعمل، حاملًا المنجل في يده، فتهرع زوجته بالفطور ثمّ تمنحه دعواتها "وفقك الله في هذه الصّبيحة، تذهب وتأتي بخير إن شاء الله" فيذهب سعيدًا وهو حاملًا ورقة حظّه.

في تلك البساتين المغرّدة التي كشفت عن مواطن فتنتها، يرتفع شهيق الشّهوة كلّما يمّر الإنسان ويتمدّد بين أحضانها العاريّة، تعطّره بأريجها الفيّاض، وتمدّه بمدى الهوى، تتراقص أمامه الأزهار وهي تفتح ستائر أنوثتها وقبلات النّدى، فتسكر الخوالج سحرا وتنام على بساط هديل الانتشاء. يهرع الأب "محمّد" إلى أرضه يهبها كلّ حنانه وعطفه، فتتجاوب معه في حنان سخيّ مشكلّان مشهد عبق الرّوح وهي تتسامى، يخاطبها في غنج مثير: صباح الخير حبيبتي، اشتقت لك كثيرًا.

فتجيبه بابتسامات مغرية، فتتهامس الزهور والفراشات، وتخطّ الأوراق تفاصيل اللّقاء في شهوة سافرة. فتلبسه قبسًا ساكرًا.

كانت هذه الأرض معطاءةً تهب الخير والشذّى والوفاء والرّجاء، إنّها أرض الأمنيات الجارفة والأغادير الخضراء، والغمرات المترقرقة في بذخ

شهيّ، وكان الأب "محمّد" يعيش من هذه الأرض، كما يبيع جزءا من المحصول، أمّا الباقي فيهديه للجيران.

كانت سمعة العائلة كالحرير الهامس، وكان الأب "محمّد" رجلا محبوبا من طرف جميع النّاس الذّين كانوا يطرقون باب بيته يوميّا لطلب ابنتيه للزّواج.

كانت تلك العائلة المثاليّة تتألّف من الأب "محمّد" وزوجته" عائشة" و أبناؤه "جهاد"، "ريماس"، "رهف".

كان " جهاد" طبيب القرية المعروف، تأتيه النّاس من كلّ أرجاء تلك القرية، أمّا "ريماس" فكانت تدرس بالجامعة بالمدينة، أمّا "رهف" فكانت تدرس بالثانويّة.

تعرّف "جهاد" على إحدى بنات القرية "أريج" فطلب من والديه أن يزوجانه إيّاها، فرح الوالدان كثيرا و أقاما لابنهما حفلا جميلا بين أحضان الطّبيعة الفاتنة.

مرّت السّنوات ومرض الأب مرضًا شديدًا وشارف على الموت، وأراد أن يوصي أبناءه: يا أبنائي الحياة أخذ وعطاء، سأموت اليوم و أنا سعيد لأنّني ربيتكم على الأخلاق والمثل العليا، على التواضع وحبّ الأرض، وصيتي لكم أن تعتنوا بهذه الأرض بعد مماتي، فهي بمثابة أمكم الثّانيّة، ترفقوا بها جيّدا وامنحوها من حبّكم وشغفكم الكثير.

تكلّم "جهاد": سنوفي بوصاياك يا أبي، لكنّك لن تموت، ستبقى معنا تضلّلنا بشمسك دائما.

تقدّمت "ريماس" نحو والدها تحتضنه وتغدق عليه شلّال حنانها: لا يا أبتِ لا تقل هذا الكلام لن تموت... لن تموت... لن تموت.

نادى الأب على قرّة عينه زهرة البيت الفوّاحة "رهف" وطلب منها أن تتمدّد على صدره، فيما أخذت الصّغيرة تنوح: بابا لا تذهب وتتركنا، أنت الوحيد الذّي يغرقني من وهج عطائه، لقد وعدتني أن تظلّ معي دائما، وبأنّك ستشهد على نجاحاتي، لن تموت، لن أعيش من دونك.

كانت " عائشة" تقف أمام الباب وهي تنزف دموع فاجعتها، نادى عليها "محمّد": تعالي يا "عائشة" يا منيّة الرّوح، لقد أمضينا أوقاتا جميلة معا في رحلتنا الطّويلة الممتدّة أكثر من ثلاثين سنة، كنت رفيقتي في السّراء والضّراء، تقدّمي.

وضع الأب يده على يد زوجته، ثمّ قال لأبنائه: يا أولادي، أمّكم أمانة في عنقكم، اعتنوا بها بعد رحيلي ولا تحزنوا لفراقي، أنا راض عنكم أينما أكون يا مهجة روحي. ثمّ نطق الشّهادتين وفارق الحياة.

امتلأ المنزل بأصوات النّواح التي تبعثرت لتغمر فضاء المنزل، استعمرت الرّوح حبب من غيوم الحنين، حزنت الطّبيعة، وتدفقت ينابيع الحزن ومراتيج تجلّي الفاجعات جفّت عيون الحبق من النّدى

وتراخت جنّات الأصيل تعتصر نايات الشّذى وضاع عطر الأمنيات على نعش الفناء.

مرّت ستة أشهر منذ رحيل "أحمد"، فارقت "عائشة" الحياة حزنا على رفيق دربها وتركت الأرض من بعدها أمانة في عنق أبنائها.

تمرّ الأيّام، ويهاجر "جهاد" إلى باريس بعد وصوله عرض عمل هناك. أمّا "ريماس" فقد استقرت بالمدينة، و"رهف" استقرت بمنزل خالتها في مدينة أخرى.

ملأ الخواء والخراب تلك الأرض العطرة التي فقدت بهجة تألقها منذ رحيل الوالدين " أحمد" و" عائشة"، كان المارون إلى تلك القرية يندهشون للحالة التي حلّت بها فقد وهنت وضعفت، وفقدت بهاءها وغنجها وإغراءها، أضحت شاحبة الوجه داميّة العينين، باردة المشاعر، وكانت طقوس المآتم والحداد تقام كلّ يوم على ضفافها.

استقرّ "جهاد" بمدينة " باريس" منتعشا بعطرها الماسي، ورائحة بحر السّين تتدفق إلى خوالجه كلّ مساء، لقد تلك الرّائحة الفاتنة التي كانت تغريه بها حقول القرية الآسرة، لقد فتنته إغراءات "باريس" ورغباتها المحمومة، هجر مبادئه ودينه ورمي نصائح والده عرض الحائط، كان كلّ ليلة يدخل منزله ورائحة الخمر تندلع منه.

استغربت "أريج" للحالة التي آن إليها زوجها، وهي لا تصدّق أنّ ذلك الشّاب القروي المتأنّق بشيّم أهل القرية ومبادئها الحسنة يصبح سكّيرا هكذا.

أمّا " ريماس" فقد اندمجت في فضاء المدينة، التي أغرّت بها فتحوّلت من فراشة حسناء إلى فاتنة السّكرات تعرّفت على جماعة أدخلوها عالم الدّرن والرّذيلة، فتركت مبادئ عفتّها، وأغرقت جسدها في وحل اللّيل، كانت بين الفينة والأخرى تتذكرّ صور والديها فتنفجر بكاء، لكن سرعان ما تدرك أنّ هذا هو السّبيل الوحيد من أجل تأمين مصاريف دراستها.

كانت "رهف" تفتح مذكرات صور عائلتها، فتتذّكر وصايا والديها، فترتحل إلى ذلك الماضي الذّي كان يشرق حنينا، وتنفتح ذكرياتها على إشر اقات الحقول وهي تنفجّر حبورا، وجنّات النّهر وهو يعزف خرير الحنان والوفاء، وحبّات الشّمس تتساقط على جسد الأغنيات.

- سامحني يا بابا، سامحيني يا ماما، لقد خذلتكما.

تدخل عليها خالتها، فتبصر مشاهد وجعها، فتحتضنها بعمق، ثم تغلق ألبوم الصّور وهي تخاطبها اصبري يا حبيبتي، الغد سيكون أكثر جمالا وفرحا.

- يا خالتي، أرجوك أعيدي أرضي، أعيدي أرض والدي، لن يسامحنا... لن يسامحنا أبدا.

تملّك الحزن قلب الخالة، فبكت حسرة وأسى: أعدك حبيبتي، ستعود جداول الفرح تتربع على بهجات البساتين، وتعود جنّات مواويل المياه تقذف على مباهج الأصيل، أعدك.

تبتسم البنت " رهف" وهي تسمع كلمات خالتها الرّنانة والملهمة، وهي تمنيّ نفسها بعودة أرضها إلى سابق عهدها.

تتواصل فصول الصّخب تعبر حياة "جهاد"، وذات ليلة دخل منزله ساكرا كعادته، كانت زوجته " أريج" تنتظره وفي داخلها ضجيج الغضب يشتعل أكثر فأكثر. صفعته عدّة صفعات كانت كافيّة أن تعيد إليه صوابه الذّي سرقته منه أساطير "باريس"

- ماذا حدث لك يا رجل؟ ماذا حلّ بك؟ لقد أهملت نفسك وأهملتني معك.

- مابك يا "أريج"؟

- أجبني أفقدت صوابك؟ لقد انصهرت في عوالم سحر باريس، وفقدت كبرياءك ومبادءك وأصولك القرويّة.

- إنّها طبيعة البلاد هنا، شيء عادي.

- أنت لم تكن هكذا، أين الوعود التي قطعتها على والدك في أن تحمي أرضكم؟ أتعلم ماذا حلّ بها! أنا لا أريد أن أنجب طفلي هنا، اشتقت لرائحة أرضنا الزّكيّة.

ثم واصلت كلامها قائلة: لقد وصلتني رسالة من عائلتي، تخبرني أنّ تلك الأرض فقدت ماء وجهها، وجموح وهجها، وعطر عنفوانها، أصبحت طريدةً، شريدةً، لقد فقدت أنوثتها، وشاخت قبل أوانها.

امتدّت يد "جهاد" لتلامس الرّسالة، قرأها في لهفة "يوم هجرتني أيّها الفارس لبست روحي رداء الفناء والحداد، وتاهت في مدن العشق مشرّدة، تبحث عن فرحة أسرت في زنزانة الهجرات، لم يبق في مواجعي غير دماء الحسرة تسري في تجاويفي وقناديل حبّ مسائيّة تنوح على أطلال الحرمان، أيّتها الرّوح السّاكنة درر عشقي تعالي وأنيري شرفات عطري، وألبسيني من جديد، أنا هنا في موعد الانتظار أتفحمّ في عتمة الذّاكرة.

لمّا قرأ "جهاد" تلك الرّسالة التهب شوقا وشغفا لتلك الأرض العذراء، نظر إلى زوجته التي ابتسمت في نشوة سامرة: أجل، أجل، سنعود إلى أرضنا.

تملكت فرحة عارمة وجه "جهاد" واحتضن زوجته: شكرا لك أيّتها الزّوجة الطّيبة، أيّتها النّسمة الدافئة، غدا سنعود إلى أرضنا.

في اليوم الموالي، اقتربت الخطوات من منزل " محمّد"، لقد عاد "جهاد" و" أريج"، نظر "جهاد" إلى الأرض فلمس اخضرارا نبت على شفاهها الورديّة، نظر هناك فرأى أخته " رهف" وخالته، هتف من بعيد " رهف"... " رهف"... " رهف" لقد عدت.

جاءت "رهف" مسرعة وملتهبة للقاء أخيها الذّي فارقها لمدّة عامين، احتضنها بشدّة وشوق.

- سامحيني حبيبتي لقد خنت عهد والدنا.

- المهم أنك عدت، وهذا هو الشيء المهمّ.

- لقد تبت عن أخطائي وعدت إليكم بسبب هذه المرأة العظيمة، التي أحييت فيّ حبّكم، وحبّ هذه الأرض الهيفاء.

- شكرا لك يا زوجة أخي الطّيبّة، ثمّ تقدّمت صوبها وعانقتها عناقا حارّا.

- قولي يا " هف" منذ متى عدتم إلى خدمة هذه الأرض؟

- لقد ساعدتني خالتي الحنون في أن أعيد للأرض بعضا من بهجتها.

- شكرا يا خالتي، شكرا لك على كلّ شيء.

- العفو يا ولدي، المهم أن لا تفترقوا من اليوم، بقي أمر واحد، ابحث عن أختك "ريماس"، لقد بحثنا عنها منذ عامين،، لقد تخرجت من الجامعة، لكنّنا لم نجد لها أثرًا.

كثّف "جهاد" بحثه عن " ريماس" حتى وجدها في أحد الحانات، ولمّا رأته صرخت: أخي، ثمّ هربت.

تبعها مهرولًا: " ريماس" انتظري أختي، لن ألومك عن شيء، لقد تخليّت عنكم، أنا المسؤول عن وجعكم، سامحيني من فضلك.

أسرعت الأخت إلى حضن أخيها، تلتمس منه بعض الدفء، وهي تبكي: لماذا هجرتنا يا أخي...

- من اليوم لن نفترق، لقد عدت لأخدم الأرض، التي تركها أبانا أمانة في عنقنا، سنعود كالسّابق.

عاد الزّهو يرنو إلى تلك الأرض التي هبّت الأيادي تخدمها بلهفة وشغف، وكانت أغاني السّعادة تنجرف كجداول ضوء مهفهفة، ارتمى "جهاد" وزوجته وخالته وأختيه " ريماس" و"رهف" على أحضان الأرض يستمدّون منها حبّات الجمال، والصّفاء والسّلام.

وبينما العائلة منهمكةً في مغازلة الأرض، تغسلها بحنانها وأمنياتها، اقترب منهم صوت شاعريّ يشبه همس الحرير، إنّه صوت والدهم، الذّي أطلّ عليهم يبتسم في طلوع، يمطرهم بهمس الشّوق.

ما إن رأته تلك الوجوه حتى اندفعت كلماتها: أبي.

- يا أبنائي، الآن أنا سعيد جدّا، لقد فزتم في الاختبار.

تعالت ابتسامته تعطّر المكان وتنمقّه، سأغادر الآن يا أحبّتي، لكنّني لن أغادر أرواحكم سأحيي فيكم دائما أينما كنت، أوصيكم اعتنوا بأمكّم جيّدا ولا تدعوها تنزف دماء الضّياع والاغتراب مرّة أخرى.

نظرت العيون إلى بعضها البعض وهي ترمي رماد أيّامها الماضيّة في يمّ النسيان وتمطر من شغف الأرض شجون عزف الوجد السّرمدي، مردّدين آخر كلمة لوالدهم: أمّنا الأرض، فلتحيا أمنّا الأرض، فلتحيا أمنّا الأرض... فلتحيا.

ستائر غراميّة

" الألم حقيقة، وكلّ ما عدا ذلك خاضع للشّك." - كويتزي-

ما أجمل شعور الحبّ! وما أقسى خيباته! أكبر خيبة في الحبّ أن تهب ورود حبّك لإنسان، وتنصبّه أميرا يحتلّ شغاف فؤادك وفجأة تضيع في براثين الغياب، وتتدفق أسئلة التيه فتبحث عنه بين دفاتر ذكرياتك وتراتيب حروفك لينجلي أمامك ويعلن نهاية الحلم الوردي.

أنا " أسيل" فتاة عشقت الحبّ إلى درجة الجنون، كنت أسيرة الرّيشة، أرسم خرائط الأمل، أمنيات العشق تراتيل المساء، نسمات الصّباح، ورود الحبّ العطرة. كنت أرسمه ولم أكن أدري أنّني أرسمه فعلا ليلامس أحلامي الماسيّة، وفجأة يظهر أمامي ناثرا ضحكاته الغنّاء: أفعلا كنت ترسمينني؟

عقدت الدّهشة لساني، أفعلا كنت أرسم عاشقي سيّد اللّوحة؟ لقد ضعت في شواطئ عشقه بلا استئذان ودخلت في صراع مع الألوان والكلمات الصّامتة، عشقته إلى درجة التيه اللّذيذ، كنت أسعد امرأة يوم جاءني ينثر أريج لهفته على مستعمراتي، أحبّك يا رسّامتي، أحبّك يا حبيبتي.

لم أنطق أيّة كلمة لكن سعادتي فضحتني وأكدّت له أنّني أحبّه، أحبّه، أحبّه.

جمعتنا صدف الحياة الكثيرة، كنّا نرتشف رحيق الحبّ ونبني في قلوبنا أعشاشًا من الوجد، نربّي السّعادة بيننا، وكانت شاهدة على مواعيدنا الغراميّة كراسي المساء ولوحات الرّسم الدافئة.

وفي يوم أتيته مسرعة لأعلن له عن نجاحي في مسابقة الرّسم التي شاركت فيها وفزت بتلك اللّوحة التي نقلت فيها تضاريس وجهه، براءته، هيامه، لأتفاجئ به بين خلجان امرأة أخرى غيري، هطلت دموعي بغزارة وذقت الألم لأوّل مرّة في حياتي تبعني مهرولا: حبيبتي سامحيني، أنا لم أعِ ما أفعل، كانت لحظة ضعف....

ضحكت من شدّة الألم وقلت: المحبّون لا يخدعون، لقد قتلت حبّي اليوم، لقد أجهضت حبّ امرأة كانت تعدّك مرفأها الأبدي الذّي ترسو إليه، بعد اليوم لا أريد أن أسمع عنك شيئا، أنت ميّت يا "جلال" بالنّسبة لي.

- سامحيني من فضلك.

- مستحيل، انتهى كلّ شيء بيننا.

رميت خاتم خطوبتنا في وجهه، ثمّ غادرت تاركة خلفي فؤادي المعطوب، ورميت على عتبات ذكرياتنا كل حدائق الزّهو التي نسجناها على شمس فرحنا، و انتعلت جراحي و انكسارات أنوثتي ومآتم حلمي.

رحلت يا "جلال" وعشت بعدك في اغتراب، نثرت مواسمي قهرا ورذاذ جرح، هجرت الريّشة وخاصمت ألوان الأمل، وصرت بعدك أعشق الأسود.

مرّت سنة كاملة لم أتنازل عن ثوب الألم الذّي عشقني حتّى النخاع، كانت شموع الحزن رفيقتي تؤنسني، تمارس عليّا إغراءها اللّيلي، النّوم هجرني والسّهر أرهقني، كنت أحاول أن ألّم شتات فؤادي الذّي اندثرت شظاياه في صحراء حبّك القاحلة، لما الحبّ كان قاسيّا عليّا؟ لم أجن غير أشواك الخيانة والخداع، حاولت أن أجمع ما بقيّ من قوّة وصبر، قرأت عن ولع "بيكاسو" بالرّسم وقلت في نفسي: سأبدأ من جديد. عدت إلى الرّسم لكنّني لم أقدر سوى على رسم صورتك التي لم تفارق ريشتي.

الحياة لمّا تغادرنا تنثر في أرواحنا بريق الرّحيل الأخير، حتّى وإن أردنا محاربة القدر إلّا أنّ سلطته هي التي تنتصر في الأخير، لم يبق في دفاتر ذاكرتي غير تلك الستائر الغراميّة التي نشرتها على محرقة غيابي، شبابيك الأمل غادرتني، لم أكن أظّن أنّ عذاب الوجد محرق لدرجة الانصهار، أنا كنت امرأة حالمة لكن الحبّ كان أقوى من أحلامي، لم أقدر على مواجهة انكسارات القلب، ولم أقدر على منحك فرصة الصّفح الأخيرة، أضحت حياتي قاتمة لكن عيناي كانت تتلهفان لرؤيتك، كلّ

مدن العشق بعدك لم تستطع أن تلهم ريشتي. لم تستطع أن تملأ فراغ لهفتي.

مرّت السّنين واستطعت بفضل ما بقيّ من أمل أن انتشل قلبي من بحر الحزن رميت الألم وعدت من جديد إلى مرافقة الرّيشة لأندهش لأوّل مرّة أنّني لم أرسمه، لقد رسمت قصّة حلمي المدهشة في أن أصير أكبر رسّامة، كانت سعادتي لا توصف لما صافحتني الألوان الصّامتة من جديد، لقد غادرالأسود لوحاتي نظرت إلى اللّوحة فغازلتني أطياف الأمل والجمال، وخرجت الألوان من شرنقة اللّوحات لتعلن ميلاد قصّة حبّي الجديدة، قصّة عشقي الأزليّة للرّسم، انجلت طيور السّعادة تغرّد من جديد في فضاءاتي، وعاد الزّهو المتوسّم عبقا شذيّا ليرسم على أفانين روحي، عدت أكثر ألقا من السّابق، عدت سيّدة اللّوحة، أرسم جسور الأمل، قصص العشق المرنّم، عوسج الضحكات الغنّاء، ورحت أرنو إلى حدائق الفرح الجميل.

خريف الذّكريات

جاء الرّحيل يقطف آخر أوراقه وبين فواصل الألم بثّت تفاصيل الذّكريات، تأمّل ذلك المكان الذّي كان يعجّ بمسافري الجوى الجميل، وتلك الكراسي التي كانت شاهدةً على ميلاد تراتيل الحبّ المجنونة وشظايا الأوراق المرميّة على مسافات جنون اللّهفة والنّشوة المغامرة، تأمّل قليلا تلك الكراسي الموشومة بذكريات من رحلوا فأضحوا سرابا يعانق غفوة الاحتراق.

في ذلك المكان نمت قصّة حبّ بريئة بين "هيفاء" و" ليث"، قصّة حبّ شهدت عليها خفقات اللّقاءات، كان يغازلها في براءة شديدة: هيفاء يا هيفاء الرّوح، يا فراشة عمري، فيتصاعد الخجل إلى وجهها الوديع وتسكب شفتيها ابتسامة ورديّة ويتسلّل إلى عينيها شّلال الأمنيات والرّغبات المحمومة.

كان فضاء الزّهو يحتضن قصّتهما القرمزيّة، ويمنحهما شهدًا يتلذّذان منه طعم الوصال، وكانت السّعادة والبهجة تتراقصان على مواويل أزهار الرّوح المغرّدة، وكانت المسافات بينهما تجلي شرفات البهجات، وتقام لأجلهما طقوس أعراس الزّهر المتبسّم على أهداب الجمال.

كانت الأسئلة المثيرة تتصاعد في حضرة الدفء وهي تروي تواشيح حكايات منسوجة بعبق المكان ورائحة الأشواق، وعنفوان الصّبابة، وهمس اللّهفات، وشغاف المجيء البهيج.

مرّت الأيّام وكانت البهجة ترسم بأناملها فرح النّهاية، ونهر الشّعف يتدفق على تواريخ النّشوات لينثر الرّحيل رحيق خريفه، ويخط ذكرياته.

جاءت كالملاك ممشوقة بشذى الأنوثة، وكان ثغرها يعزف اخضرار أغنيات البنفسج الشّهي، وتحمل في يدها دفاتر أفانين البيلسان، وطلوع اشراقات الأصيل.

نظرت إلى المكان فوجدته شاحبًا ليس على عادته، تساءلت في حيرة: أين سافرت البهجة والألق التي كانت تستعمر ملامحه؟ نظرت إلى الأرض فوجدت ورقة خريفيّة مرميّة على فواصل الوجع المهموم، تأملّت فوضى الحروف المتصارعة التي أنبأتها بتذكرة السّفر الأخير.

ارتسمت على شفتيها أسئلة مبعثرة تبحث عن إجابة تخفّف عنها ضوضاء الحيرة التي اكتسحت عينيها، تأمّلت من جديد تلك الورقة لعلّها أخطأت مسالك العبور لكن الورقة كانت هي أيضا تسبح في بحر متدفّق من عباب الأسئلة المتثاقلة.

- اسمحيلي يا هيفاء سأغادر معترك حياتنا من أجل تحقيق أهدافي، هذا المكان الذّي كان يهتف بفتوحات وصالنا، كان أيضًا غارقًا

في غمامات مستعمرات خسائرنا، الهجرة هي من تمنح لي رغد الأحلام ومرج المتاع.

سقطت "هيفاء" وتمدّدت على رخاوات الأوراق الخريفيّة، بكى الأصيل وترقرقت دموعه تغسل محرقة الحكاية، وتننشر رسائل الزّهر في حقول ضبابيّة الصّمت، واشتعلت حرائق العتاب وغوايات الألم وهيج الفراغ، وبخور الظّلال التي عمّت أخاديد المكان.

امتثلت تخوم الهواجس للرّحيل، ولبست مرايا الفضاءات حرائق الفجيعة، وهطل غيث الأحزان يغرق الأحلام التي استسلمت لحشرجات الأفول، وحمل الغياب فاجعة الوقت.

مرّت السّنوات وما زالت "هيفاء" تزور خلوة تهجّد الهوى، تستجمع تحف الذّكريات وتخطّها على أوراق خريفيّة، وتلمّ على متاهات الأمسيات المغادرة تعاويذ البهاء وحلم قناديل الزّهر التي اكتوت بسكرات غفوات العزلة، وتمدّه بضحكات الخنوع والوتر المتنهد. تتوقف برهة، تسأل في عنفوان جريء غموض فيض السّحر: أيّها الأصيل الغاوي، هل تسمح لي أن أكون عاشقتك ورفيقتك؟

ابتسم الأصيل وتصاعدت صرخات مواويله تعمّ المكان: يا بهجة السّحر، أنا سعيد برفقتك، سأهِبك أريج روحي، ذكرياتي وبساتين البيلسان والسندس والياسمين سأرسم كرزا أحمرا على شفاهك،

ورونقا متدلّلا في جداول عيونك، ونكتب معًا على رذاذ الفرح المتجلّي مشاهدا من بذخ الشّوق... آه كم أنا منتشي بلقاء فاتنة اللّقاءات، وساحرة الأقدار.

قالت له في لهفة حالمة، وارتفعت تنهدات جسدها المخملي: سأكون من اليوم رفيقتك وحبيبة أقمارك.

افترشت "هيفاء" مداد المكان، وتمدّدت على غبار غشاوة الخواطر المسائيّة وسبحت في تألق كفراشة قرمزيّة، وجابت أرجاء المكان ونثرت في كلّ شرفاته سحرًا وألقًا وبلجَ البهاء. نظرت لآخر مرّة له قائلة: سأفتقدك يا مدائن حلمي، يا خفقات الرّياحين سأنام على وسائدك العبقة بالمحبّة، وأرتشف من عطاءات مباهجك و انتشي بترف أغانيك. ونامت عيون العذوبة على نسائم همس الجمال. لقد رحلت الفتاة بعد أن عاشت يوم بوح الانتشاء على ضفاف ربيع الرّوح الذّي وهبها طرب الوفاء.

ملأ الحزن المكان لرحيل "هيفاء" نسجت بعطر روحها عذوبة زهو، ووهبت الأصيل فرحة متوردّة بهمس الجنان، ونشوى حقول مواسم الحنان.

مرّت اللّحظات تغازل غروب الهروب، وتثاقلت الخطوات أمام معابر هواجس الخطوب، وجاء "ليث" العاشق مهرولا يباغت الوقت

والمكان لعلّه يحظى بفرصة النزوح الأخيرة إلى مرافئ حلمه، حملق في ملامح المكان فوجده معربدا، تائها في دروب الكوابيس، فتقدّم إليه سائلا: أين هي عاشقة المساء؟ أين هي هيفاء الحكايات؟ أين هي؟

سمع صدى آتيا من بعيد، فوقف متأمّلا خطواته، فتلاقحت أسئلة النهايات وخيالات الذّكريات.

- لقد رحلت... لقد رحلت... لقد رحلت....

وقف مشدودا في مكانه ينظر إلى تلك الأشباح التي سكنها غبن الانهزام، وتصاعدت فسحة الموت تحلّق في خفق الشّهوات.

- هيفاء... هيفاء... أين هيفاء؟ وامتطى دروب الغروب، فاتحا كفيه للرّحيل حاملًا كؤوس الجراحات والهواجس وعباءات النّهايات، سامعًا آخر قصيدة ردّدها الصّدى في تجاويف المدى.

أمام تيه السؤال

تنجلي نشوة الرّحيل

غبار حكايات النّهاية

يغسل مقل الفرح

وريح الأمنيات الهاربة

ترتلّ أنين الجرح

وتدفعني لأمسيات غابرة

وجنون لهفة مغامرة

وتمنحني متاهات الخطوب

آخر ضحكات الهروب

وفاجعة حلم تماهى في الغروب

حلـــم باريسي

" فشلنا جميعا في تحقيق أحلامنا في المثاليّة، لذلك أقوم بالتّصنيف على أساس فشلنا الرّائع في القيام بالمستحيل." – ويليام فولكنر-

وقفت "حسناء" هناك على عتبات اللّحظات تتأمّل سنين الحياة التي أرعبها شبح الاختصار، وارتمت أمام هواجس المرايا التي أشعلت فيها مرارة الخسائر والانكسارات. ثمّ استيقظت التّساؤلات من سباتها الموغل في الحماقات: كلّ هذا الجمال يا كاسحة المستحيلات، وأنت تهرعين إلى رخاوات الجنون، استيقظي من وجع الحسرات...تثاقلت الأسئلة القلقة تصرخ في تثاقل حتى انحلت تلك الهواجس في غفوة المكان مشكلّة مشهد توجّع الرّوح، وتوهجّ حرائق العثرات...

تذكرت لوهلة مصيرها المحتوم وبأنّها ستزف قدرها قريبا إلى مقصلة الحياة، آه.... لا يمكنني أن أتزوجه لا يمكنني أن أرم ورود حلمي التي نثرتها هناك على شوارع مدينة الضّياء مدينة السّحر – باريس-

كان هذا الشّغف يرتشي عيوني بدفء الإبهار، لكنّه لم يولد في روحي غير غياهب الانهيار، جسدي هنا مع هذا الفناء، وروحي ترتشف الألق من أوبيرات العشق الباريسي.

لكن فجأة تتدفق إلى شوارع ذاكرتها ضجيج من فوضى العتاب، فتترامى صورة حبيبها "براء" لتتمدّد في انتعاش على صفحات حلمها،

تحاول أن تطارد طيف تملّقه: اذهب من أحلامي، ثمّ تنفث فيه سمّها الجريء. لكنّها سرعان ما تتذكر قصّتهما الجميلة فتسافر حالمة إلى مدائن الصّبابة المتدفقة سحرا غجريّا وتستيقظ على كلماته الغنّاء:

أحبّك يا زهرة الرّوح، يا أفانين البهاء، يا ياسمين حلمي المتوردّة الأشهى من البسمات، يا فراشة تتدلّل ندى وسحرا على مفاتن الزّهو بألوانها الربيعيّة لتبلي جنوني ورعشة روحي بنشيد التّدلّي...

لكن سرعان ما تغازلها مرآتها الحمقاء فتلتحف بأريج دفء الأحلام الفاتنة فترنو هاربة إلى أرصفة ذكرياتها المغرّدة بدهشة التجلّي، وتقيم من جديد مباهج لحظات الهروب المنتشي بعطر باريس. فتتوسدّ لهفتها وشغاف صحو بوح التبلّل الجريء. وتتنهدّ تنهيدات تشبه الغيم المتدفق على سفوح السّماء مشكلّةً رقصات حلم مواسم غيث منسّم.

سآتيك يا حبيبتي باريس ارتشف من ثغرك اخضرار مواجع انتظاري، سأرقص على مباهج سحرك وأرتلّ آيات عشقي ووجعي ودفاتري التي انتصبت في ليالي الدّجى...سآتيك على همس اللّقاء ألملم آخر تعاويذ فرحي، وأخيط من خيوطها حلما شفيفا يعبر الضّوء الشّريد، سأتحلّل في دفء اللّقيا وأنسج قصيدة الفرح الموسوم بماء سندس العطاءات ...

هبّت الساعات والأيام تمتدّ على هواجس جرح عاثر، والصّبية تغزل حلمها بماء التألق الباريسي، كانت أسعد يوم تراءت أحلامها هناك على عتبات اليقين، وأخيرا سأرتوي من شلاّل أغنيات الطّلوع ستنضج مناهل تدفقات شغفي...

استدارت قليلا للوراء، وانسدلت جداول حبق الزّهر على جسد الأمنيات تنثر فرحة العيون التي تلونت أغنيات حالمة مهرّبة إلى أزمنة من رغد السّحر.

كانت ممدّدة في التصاق شبقي مع البوابة الزّرقاء الفيسبوك، فقد فتنها ذلك العالم الآخر الذّي كان مرعى يتفجرّ على بساتينه دفء التودّد وحبب التوقدّ.

تعرفت على أناس جدد أرهقوها بعبق الإبهار والإبحار في متاع الأسفار الشّغاف فكانت عيناها تتوضآن أغنية شجيّة من ينابيع سكرات التنمّق، فتتماهى أكثر في مسافات التيه، فتقتنص لحظات عابرة من رونق الندیات وجلنار الرّسمات التي تفتحت أنوثتها على كفّ الخيال.

كان "جان" الباريسي رفيقها الحميم ومحبرة مباهجها، كانت كلما ترتحل إلى شواطئه الهيفاء يسكرها رغدا من بنفسج عطاءات التألق،

وزهو من فيوضات الألق... ومرّت الأيّام ملتهبة شغاف كبرياء " حسناء" وتملكتها مملكة السّحر، بعد أن عربدت منها كاسات فرح الانتشاء.

لقد سرقتها أرصفة الأحلام المختملة متاعا ودلعا، لقد أحبّت "جان" وأحبّت متاع شغف باريس، وبدأت تعدّ اللّحظات حتى تسافر إلى عالمه الزّهري.

وفي لحظة عابرة تذكرت حبيبها "براء" فتناسلت الأسئلة المتناحرة تحرق خلوة أحلامها، ابتعد عنّي... ابتعد عنّي... ثمّ سرعان ما تراءت مواجعها أمام المرآة: أحبّه، أحبّ براء لكن... وفجأة تتراءى أمام عينيها مشاهد حبلى بأنين العثرات ومواجع الحسرات، أمّها التي فارقت الحياة لأنّها لم تكن تملك المال لمعالجة مرضها ورحيل والدها المبكّر حزنا على فاكهة روحه، فتترمل دموعها وتنسدل جداول الدم والقهر، فتنعت الحبّ والقدر وتنظر إلى مرآتها فتقرّر أن تخيط من وهج العذابات اشراقة تتدلل، تتعطر، تتغنج في شموخ مفاتن النهارات، سأمتطي دروب لهفتي ومرج رياحين شوقي المنسمّة.

- أنا قادمة يا باريس قادمة من دهاليز حماقات قدري، قادمة من مواسم تعب الروح وخبل الانهزامات، قادمة من احتراقات فؤادي المصلوب بحبب التنهدّات قادمة من فيوضات المستحيل ووهج

المجهول... وتخطّ رسالة ل" براء " وقد كفنتها بغمامات من تبلّل نوايا الرّوح.

نثرت المكان بظلّ خبائل الانكسارات، ورمت ذاكرة العذابات، وتوغلت في رسم السّحروأريج نبوءة مواسم زهو حلم الفتوحات.

هرعت حانية راكبة خطوب فرح اللّقيا، إنّه "جان" ينتظرني أمام مطارات الحلم... تهرب الحروف من شفتيها مشتعلة تمردها .... تنظرآخرمرّة إلى بياض مرآتها لتمنحها آخرابتسامة

قادمة إليك يا باريس
قادمة إليك من أسارير العبرات
وتوهّج شغف الفيوضات
من مدائن الصّقيع
التي ترّملت في تضاريسي
سأعزف على أنامل طقوس شعرك
أغنيات تهجّد المستحيلات
وتواريخَ من الحبق الجميلات
سأتيك أنزف أوتارفاجعة جرحي
و أتمدد في دفء تراتيبك
و أتدلّل بعوسج حبل التجلّل

وصلت إلى مطار الجزائر العاصمة بحث عنه، عن عطره الباريسي الذّي تنسّمت منه مسافات من الألق، بحثت عنه فلم تجده، نظرت إلى مملكتها الزّرقاء فتسابقت إلى مرايا عيونها جملة: حبيبتي اعذريني، أنا آسف، في حقيقة الأمر أنا متزوّج، لقد أمضيت وقتا متألقا معك، شكرا...

أحسّت أنّ الدّنيا أمامها تلحتف الحداد وتهطل غيث السّواد، وترملّ الحلم في عينيها: وداعا باريس، وداعا باريس، وداعا...

رجعت إلى غرفتها وتفجرّ على مسامعها نبض الخفقات، وأسرعت إلى مرآتها الحمقاء التي رشّتها بخيوط المستحيلات، وراحت تؤنبها ثم رمت عليها من وهج المجيء حرائق التردّد، فاحترقت تلك المرايا تنوح في ضبابيّة من البكاء.

ثم مسحت تكدّسات الدّموع التي توسدت على جفونها مشكلّة فيض تهجّي المستحيل، ورأت تلك الرسالة التي خطتها ل "براء" فمزقتها ورمتها في منافي الظلمات، نظرت إلى السّماء رأت شعاعا يتجه صوبها مشتعلا في خمائل وزهو، ولج غرفتها وتمدّد مكان مرآتها: نظرت إليه وهي تقذف ماء دهشتها: إنّه حلمي، إنّه براء... ومضت تغترف من ياسمين اللّقاء تفاصيل عشقيّة تلونّها جنّات الرّوح التي أنبتت سلافة حكاية: "حسناء" و"براء".

حكاية اللّيل

تنسدل خيوط اللّيل على ضفاف مدينة الأحلام الهاربة، وتنسكب طقوس الحكايات الأخيرة فينزف الحبر على مرايا الورق آخر قصّة للجرح، للندم، للأمل.

هي حكاية امرأة عشقت اللّيل، كانت تسكن مملكته، تشدّ ساكريه بمفاتن أنوثتها وعيون نهمة تحاول النيل من جسدها الموشوم بمواطن الجمال الآسر.

جلست "نوران" على ضفاف النّدم تنثر هشاشات شغفها، وجنونها، ولهفتها بدت كحسناء عاثرة أضاعت ألقها في فراغات اللّهفة، تكلّمت والدّموع تتهاطل كشلّال عطر قرمزي: كنت أسيرة رعشة التوقد، احترقت في نيران العهر والجسد...

أبصرت "نوران" في عقارب الزّمن المسافر، وغادرت بذاكرتها الموشومة بالعار واليتم إلى فضاءات كانت تكره تذكرة العبور إليها. ذنبي أنّني ولدت لأسرة مصنوعة من حجر، كان عنوانها الصّراعات والخيبات المتلاحقة، والدي كان رجلا مسكينا أرهقته مآسي الحياة، ضحّى من أجل البلاد والثّورة التحريريّة الجزائريّة غير أنّهم ألقوا به على هامش الحياة، وهذا ما حزّ في نفسه فمات من قهره وخوفه على مستقبل البلاد قبل عائلته، وأمّي كانت امرأة متعجرفة، عبثت بتاريخ والدي المشرق، كانت تتردّد على بيوت العهر وحجتّها في ذلك توفير لقمة العيش؛ لأنّها لم

تستفد من بطولة زوجها كانت تلعن التّاريخ الثّوري فهي لم تنل منه لا أوسمة ولا رصيد مالي، أخي الأكبر "عماد" كان يكره خرجاتها المتكرّرة ليلًا، وفي يوم امتلأت عيناه بالحقد فأحكم قبضته على عنقها ففارقت الحياة. دخل أخي السّجن بعد ارتكابه هذه الجريمة الشّنيعة، فتغيّرت ملامح وجه بيتنا بعد أن استعمرته حماقات الوحشة والجنون فقررت الهروب من أشباح أمّي التي كانت تطاردني كلّ ليلة قائلة أنّها لن تدعني أعيش بسلام؛ لأنّني لم أساعدها وهي تصارع الموت المبكّر.

اغروقت عينا "نوران" بالدّموع المخضبّة بتيه الذّاكرة المعربدة في كاسات الألم، ثمّ تابعت كلامها: حملت حطام فؤادي الذّي اندثر في صحراء عائلتي التي لم تهب لي غير سجائر الأسى وبحيرات من الدّموع المتساقطة التي كانت رفيقتي في خطوات دروبي، منعت من الدّراسة بسبب جمالي، حرمت من متعة الحنان العائلي، ماهي غلطتي أنّني كنت أسيرة في مملكة تدعى الأسرة؟

منحتها منشفة حتى تمسح بحيرات الدّم التي تكاثرت حول عينيها الجميلتين استعادت بعض التنهدات الغاضبة ثمّ واصلت حديثها: ذهبت إلى الشّارع فوجدت فضاء آخرا من الأسر والعبوديّة، كانت أغلال الخوف تحاصر روحي البريئة، كلّ العيون المتوحشّة كانت تشرع سيوفها الشّرسة، وكنت أحاول أن أختبئ بين مواجعي لعلنّي أسلم منهم، كلّهم

أرادوا الحصول على لذّة الجسد لكنّني لم أعِ نفسي حتى وجدتها تنساق إلى هواجس اللّيل فأصبحت مرآة تعبرها تلك الوحوش من عاشقي الجسد.

دخلت ذلك العالم و اندمجت في تضاريسه الواسعة، انحرفت إلى مدى الفساد، رميت ستائر عفتّي وما بقي من قيّم كنت أسترها بين دفاتر ذكرياتي، جاءني يوم ظننت أنّني سأتغيّر بعد أن ذقت لوعة الحبّ لأوّل مرّة، إنّه "أحمد" الشّخص الذّي سكن خوالج روحي التي رست منذ زمن، حيث زرع شذى العشق في حدائق قلبي، فرأيت عوسج الضّياء يلوح في سماء حياتي، إنّه الحبّ... إنّه الحبّ... إنّه الحبّ.

تساقطت دموعها من جديد، فتقدمت منها ومسحت آثار وشم الاحتراق الذّي اندثر على حوافي مآقي عيونها.

كنت سعيدة جدّا يوم أتاني "أحمد" مسرعًا يحمل في عيونه رسائل فرح جميل، وتقدّم نحوي مبتهجا: أتقبلين الزّواج بي؟

شعرت لأوّل مرّة بجغرافيّة أنوثتي وبأنّ تاريخ حياتي سيولد ذهبا، بعد أن مكث "أحمد" في مدن قلبي أشعلت يومها قناديل الشّوق المهفهفة، وتلوت صلوات حبّ في محراب الأمل الآن سأعيش بهجة الرّوح، ولكن الشّيطان يومها منحني تذكرة المرور إلى عوالم الخطيئة.

لقد وقعت في غوايات الجسد ولما استفقت من هشاشات اللّذة ثار "أحمد" في وجهي قائلا: تأكدت أنّك امرأة ليل، امرأة مثلك تمنح نفسها ببساطة لأي شخص متعطّش للجسد، لا أستطيع أن أواصل معك، من اليوم جسور الوصال بيننا سأقطعها للأبد، لو كنت امرأة محترمة لحافظت على براءة جسدك.

ثمّ ذهب واندثر، وتلاشى في شرنقة الحبّ، فلم أعد أتذكر من يومها سوى بقايا صوره وكلماته الرّاحلة وتلك العهود التي قطعناها على عتبات العمر المسافر الذّي أرسل إليّ من جديد رسائل العهر، وقدّم عباب متع الجسد من جديد إلى مرافئ حياتي، تخليت عن بقايا كبرياء لازالت تسكن روحي، عدت أكثر شراسة وحقد على الحياة التي أذاقتني ألوان من العلقم، أدمنت لعبة الجسد وتجارة المشاعر لأخيط على صفحات حياتي نهاية حلمي وفرحي بعد أن قبضت عليّا الشرطة متلبسّة بممارسة الخطيئة، حملوني كالفراشة المقطوعة الجناحين إلى حدائق الموت، كنت يومها أموت ألف مرّة، مارست عليّا جيوش الأسى والألم فعلتها، فقررت أن أغتسل من العار الموشوم على خارطة جسدي المنتشي بألوان الدناسة، عدت امرأة أخرى أحاول أن أجمع شتات روحي لعلنّي أرنو يوما إلى مدائن البهجة والضّياء.

خرجت من السّجن مفعمة بالانتشاء الرّوحي، نظرت إلى السّماء مبتهجة، لملمت ما بقي من آيات عشق في قلبي وقررت أن أتفرغ لرسم شموع الفرح والأمل على أهداب هذه الحياة التي أغرّت بي منذ زمن، وقذفتني إلى مدائن التيه، والوجع والاغتراب.

لمست بعد أن طوت دفاتر مذكراتها أنّ حمامة غجريّة توقدّت من عطر تلك التنهدّات، شكرتها على عبق تفاعلها مع كتابة قصتي الموسومة ب "حكاية اللّيل" ثمّ غادرتني مبتسمة، أمّا أنا فركبت هودج أشواقي، ومضيت أرنو إلى عوالم الدّهشة لإكمال قصّتي التي نثرتها في فضاءات الجنون الأخير.

أشواق تنزف في صمت.

كان طيفه ينام هناك على معابر نشوته مرصعًا بالأمنيات، وعطر الصّدق يتدلّل على مرايا عينيه اللّتين كانتا تحملقان في ذلك القبس المثير المتوقد بالغوايات. ورائحة أريج الحقول المترفة تتدلّى أمامه كفاتنة السّكرات، تغري أنفاسه وتعيد إليه براءته التي أُهدرت منذ سنوات خلت.

كنت فتى مشبّعا بالقيّم والأخلاق، وكان نشيد الأمل يسري في تجاويف جسدي وخرير الرّغبات يتدفق في سرّه المفتون، وكانت روحي تتألّق همسًا شفيفًا لما أسير في حيّنا، فأرى النّاس يغرسون سهام نظراتهم إلّي وهم منبهرون بي: تبارك الرّحمان "إسحاق" مثال الابن الصّالح، البّار بوالديه، المتفوق في دراسته وعلمه.

كان صوت أمّي "فاطمة" يغرّد على مسامعي وهي تتكلّم بأعلى صوتها: ابني "إسحاق" سيكبر ويصير طبيبًا كبيرًا، وسأتباهى به أمام كلّ النّاس.

كانت كلماتها تشعل فتوّة أحلامي فتجيء البشرى المغتسلة بفرح الشّغف، فتتسلّق الخطوب جنّات الصّفوات لتغرف دلع الفتوحات، فيتسلّل الشّوق في جموح عفوي ليغمر شعائر غرفتي، فأهرع إلى كتبي المبللّة بماء تودّدي، فأنسج من وحي تلك التراكيب عالما بهيجا أسكن إليه.

لم أكن أتوقّع يومًا أنّ حياتي ستتلوّن بالفاجعة وبأنّني سأصلب يومًا على تلك التخوم المؤلمة، تغيّرت حياتي منذ تلك الحادثة القاسيّة جدّا، لقد أزهقت في تلك اللّيلة التي تكاثرت حولي الجراح تتوسّد أشواقي وهي تنزف في صمت.

أتذكرّ جيّدا تلك اللّيلة، كنت مارّا على ذلك المكان، وإذ بشخصين يتقاتلان فيما بينهما، فقررت أن أتدخل لفكّ حلقات الصّراع التي كانت تشتعل أكثر، تقدّمت منهما قائلا: يا إخوتي، كفاكما تناحرا، عودا إلى صوابكما ، تسلحّا بالحلم والعقلهذا التّصرف سيضرّبكما.

تكلّم أحدهما وهو ينفث فيّ سمّه: الأحسن أن تغادروإلّا ستندم.

قلت: يا إخوتي حرام ما تفعلانه، هذا السّلوك مناف للشّريعة والأخلاق.

وبعد سلسلة من الحرب الكلاميّة بيننا، وعدم استجابة الطّرفين لكلماتي، تدخلت لحلّ الخصام بينهما وبينما أنا أحاول أن أنزع السّكين وقعت جريمة القتل، فرّ المجرم هاربًا، أمّا أنا فحملت تلك السكينة في يدي و آثار الدّماء تتسلّل إلى يدي وصدري، وفجأة مرّ النّاس من هناك: يا إلهي، إنّها جريمة قتل بشعة، ذلك الفتى المسكين مات مغدورًا، وذلك القاتل...

قلت لهم: أنا لم أفعل شيئا، كنت أريد أن أفك خصامهما ولكن...

قاطعتني تلك الأصوات الغاضبة: كلّ المجرمون يقولون نفس الكلام، إن كنت بريئا ستثبث براءتك في المحكمة.

جاءت الشّرطة وأخذتني مكبّلا كالمجرم، قضيت أيّاما هناك أذرف دماء الوجع: رفقا يا ربّي، أنا بريء أريد أن أعود إلى حياتي الطّبيعيّة، إلى كتبي التي اشتقت إليها، إلى عائلتي التي لا تستحق ما يحدث معها.

كانت كلمات والدي الإمام تصبّرني وترفع من عزيمتي قائلا: يا بني، تأكدّ أنّ المولى عزّ وجل يبلي عباده الصّالحين المؤمنين، مهما كانت نتيجة هذا الاختبار لا تعاتب الله، ولا تقنط من رحمة الله.

- يا أبتِ، ما ذنبي أن أعيش هذه المواجع التي تفرخ كلّ يوم على نهر براءة أحلامي، وعري هواجس النّاس تلاحقني، لقد اشتغلت نو اياهم تنهش روحي البريئة، كرهت يا والدي.

- يا بني، تأكدّ أنّ الصّبر مفتاح الفرج.

عشت في ذلك السّجن مليئا بخفق الاحتر اقات، وظلّ طرب نشوتي يتلاشى في خلوتي، الصّقيع تناسل على سفوح مهجتي، فكنت أرسم بمداد دمي المتخثّر في عروق دهشتي فاجعة عمري، أجمع من أفنان زغاريد الفرح المهاجرة نبضا حزينا أطرزّه بآخر شعلة حلم قرنفلي أوقدته في سيرة فتوحات تهجدّي.

حلّ يوم المحاكمة ينبأ بآخر طقوس اليتم، ركنت إلى أرخبيل ارتجاجات قهري وكانت أهدابي ملتهبة بصراخ الدّموع والسّهاد، مررت على باب مقصلتي التي كانت مشرعة أحضانها وهي تهمس لي مرحبا بك.

تجمهر النّاس حول ذلك المكان، وهم يلقون ندوبهم وغوايات دعواتهم: أيّها المجرم ستنال عقابك الشّديد. ظننت نفسي في غفوة، ثم سرعان ما رأيت الصحو يطلع إلى أوردتي، وسمّ العذابات يهتك براءة روحي، تجلّت المسافات السّاخرة معلنة عن فواصل تخوم، فهتف الرّحيل ينزف مقل الظلام، والمواويل الحسناء امتطت بوح غفوتي، وكان الذّهول يتسلق في نهم إلى خواطر هزائمي وخسائري.

حكمت عليّ المحكمة بعشرين سنة، فكلّ الأدّلة كانت تدينني وتورطني. مات والدي من قهره، أمّا أمّي فكانت تنزف كلّ يوم دموعها حتّى جفّت، وهي ترى أنّ كلّ أحلامها أفلت وعانقت غمامات السّراب.

يوم مات والدي كان أسوأ يوم في حياتي، مات مخذولا فيّ، كان يمنّي نفسه أن يفرح بي وبنجاحاتي، تذكرت آخر كلماته: اصبر يا بنيّ، فالصّبر مفتاح الفرج.

كانت روحي ملتحفة بالأفول، كانت متّسعا للغروب الذّي امتدّ أكثر بعد أن أثّث خوالجي بالخراب وشجن الفجيعة، كنت أراقب قناديل الصّبا وهي مهفهفة في شموخ أحاول أن أقطف من شعلتها وهجًا حالما

أسكن ترانيمه، لكن فجأة تتفتّح شابيك الوهم لتنغرس أكثر فأكثر فتصيبني دماء الخيبة بوتر النهايات.

في هذه المدن المعربدة، تباع براءة الأرواح بأثمان بخسة، لم تعد ستائر الأمل تنسج في هذه المستعمرات المعطوبة، كلّ درر الشّغف تبعثرت على أرصفة المستحيل، صرت أنا والألم متحدّين في وجع الضّياء. قرّرت في سرّي أن أهتدي إلى فكرة حتى أفكّ حصار روحي التي هرمت و اتّسخت بدرن الهشاشات.

فررت من السّجن وذهبت مباشرة إلى منزل أمّي، ما إن رأتني حتى سمت بهجة الرّوح لتسكن ملامحها: ابني، حبيبي، اشتقت لك.

ثمّ غمرتني بفيوضات حنانها وعطر نشيد روحها، فألهبت جسدي بوشوم جنّاتها المتألقة بحبق الهمسات، وحبب أريج خفقات الفؤاد.

- أمّاه، اشتقت إليك، سامحيني يا أميّ، لقد خيّبت ظنّك.

- لا يا بني، لقد خانتك العدالة الإنسانيّة، لكن تأكد أنّ العدالة الإلهيّة لم ولن تخذلك.

- أمّاه، سأرحل بعيدا، هذه العدالة لم تنصفني ولن تنصفني. سآخذ معي متاع روحي كتبي ووصايا والدي، سأغادر ولن أعود، لكن ستبقى شلّالات ذكرياتك تتوّهج في حاضري، وترسم عمري بياضات ناصعة مفعمة بالنّفحات.

- لا يا بني، لا تذهب، لقد ترملّ فؤادي منذ رحيل والدك، بقيت وحيدة الوجد، كلّ مواسم الفرح هجرت عيوني، لا ترحل.

منح " إسحاق" أمّه قبلة حانيّة على جبينها، قائلا: سأعود يوما ما يا أمّي، ثمّ غادرها مسرعا محمّلا بأمتعة الوجع والقهر، لكن كانت أيادي الموت تر اقبه: توقف أيّها المجرم، استسلم، الشّرطة أمامك.

- لا يمكنني أن أعود إلى بر اثين الجرح، أنا بريء. لقد سرقتم منّي حريتي وبراءتي حياتي استعمرها رماد الكراهيّة، ووحل الجفاء، سرقتم منّي إشر افات حياتي، لن أسامحكم.

وبينما كانت أنامل الشّرطة تقترب، كانت مشاهد الموت تقترب أكثر، الآن سأموت متحرّرا.

لقد أفرغ " إسحاق" رصاصات الموت في رأسه مردّدا: سامحني يا والدي، لم أستطع أن أتحمّل، أفضّل الموت بكرامتي على أن أموت من وحشتي، كلّ النّاس طعنوني في كرامتي وفي تربيتكم لي، لكنّي لن أسمح لهم بعد اليوم أن يسرقوا منّي آخر أنفاسي ثمّ استسلم لر ائحة الموت التي أعادت إليه طهره الذّي سرق منه.

أنا قادم يا وجعي

قادم من فراغات عمري

من أشواقي

التي نزفت

في صمت

على محرقة جرحي

هرعت الأمّ مسرعة تحتضن جثّة وليدها وهي تندبه وتبكيه، فيما الشّرطة رحلت تجرّ ذيول خيبتها.

مرّت سنة كاملة، تقدّم رجل في الأربعين من عمره أسمر البشرة، ضخم البنية إلى مقرّ الشّرطة.

- السّلام عليكم.

- وعليكم السّلام.

- سيّدي، أريد أن أخبرك بشيء خطير أثقل حياتي ومنع النّوم عن عيوني. سأموت قريبًا ولا أريد أن أرحل ومعي هذا السّر.

- تفضل.

- سيّدي، منذ سنة كنت مارّا على ذلك المكان، شاهدت الجريمة الشّنيعة، ذلك الفتى البريء "إسحاق" لم يرتكت الجريمة، كان يريد أن يصلح بينهما.

- ولماذا لم تخبر الشّرطة؟

- سيّدي، كنت خائفا جدّا، فلم أرد أن أدخل نفسي متاهة أنا في غنى عنها.

- أتعلم أنّ بصمتك هذا كنت سببا في موت إنسان صالح، يا إلهي ماذا فعلنا؟ ماذا فعلنا؟

لقد برئت الشّرطة ساحة "إسحاق" وردّت إليه براءته وطهره، لكن بعد فوات الأوان.

تنام العدالة في بلداننا على أفرشة سر ابيّة، وتقلع جسور الأمنيات على مراسيم الهفوات، والعصافير النديّة ترحل وهي مصلوبة الجناحين، ومياه شذاها تعزف على رياحين الشّوق مقاطع الاحتراق التي تدشّنت على مقبرة النّسيان، الحلم يغادر مضجع شبقه لمّا تحين متسعات العثرات تفترس شغاف صبابته، فيترملّ حينها معلنًا نهاية صفوته، والرّوح تحبل بالألم الذّي يعجّ أنينًا على أغادير اللّيل، الذّي يقذف دماء القلق التي تترسّم على نهاية تواريخنا.

أحلام تنوح في ضبابيّة الوجع

"ضيّقة هي المراكب، ضيّق سريرنا، ليدخل البحر من النوافذ، للبحروحده سنقول: كم كنّا غرباء في أعياد المدينة." – جون بيرس-

أنا البحر أتعرفني! كنت ملهمًا لقصص كثيرة، كلّما كان يبثّ الظّلام سدوله، كانت تتفتّح على شبابيك سحري قصص مغامرة، وتتدفق الإبداعات الصّاخبة على ضفافي، لا أحد يسمع لمناجاة تلك الأصوات المتسكّعة التي لا زالت تجوب شواطئ ذاكرتي، تعذّبني، ترهقني، إنّها أشباح تخرج كلّ يوم من شرنقة النّسيان لتحاكمني.

نزيف الألم، كان يتفجرّ من شظايا تلك الأرواح السّاكرة التي قذفتها رياح الحياة إلى مستعمرات المجهول، هي حكايات أحلام تنوح في ضبابيّة الوجع، وحدها شواطئي كانت تسمع مناجاتهم الحزينة وهي تعاتبني؛ لأنّني منحتهم تذكرة العبور إلى متاهات النّهاية، سأروي لكم اليوم حكاية من ذكرياتي الموجعة التي لا زالت تنثر في خوالجي موسيقى الجرح والنّدم.

كان هناك على ضفاف الحلم خمسة شبّان يحلمون بحياة كلّها جمال وفرح، كانوا يقيمون مدائن الأحلام التي كانت تتدّلل وتتبرّج كلّ ليلة على أوتارذكرياتهم العطرة.

كان " زكرياء"، " جهاد"، " أيهم"، " رضا"، " صهيب" يتسامرون أمام مباهج ضحكاتهم الشّاعريّة، وهم يسردون على بعضهم البعض حكاياتهم الحالمة.

تكلّم " زكرياء": كم أتمنّى أن أصير كاتبا عظيما، أنشر على أريج الحياة أحرف الضّياء، ترسم فضاءات الجمال ومطارات الخيال المتدلّل، أن أصير ملهمًا لعاشقي الكلمات، أستعمر بخواطري بياض الورق، أعذّب الحروف في عنف لأخرج منها كلّ السّحر، وكلّ العطر، وكلّ الزّهو.

تبسّم الرفاق في عنفوان جميل.

واصل " زكرياء" (وعلامات الفرحة تغزو وجهه) هذه أحلامي الفاتنة، قاطعه "جهاد": يا صديقي أحلامك تشبهني، تسري في تجاويف روحي، أنا أمنيتي أن أصير مخرجا سينمائيّا، أنقل جمال صور الطّبيعة والحياة، أجسّد روح المشاعر الإنسانيّة، أرسم عصرًا جديدًا للإبداع، كم أودّ أن أسمع العالم صراخ إلهامي.

تصاعدت ابتسامة على شفاه "أيهم"، نظر إليه "جهاد" قائلًا: ماذا أصابك صديقي؟

- لا شيء يا صديقي، أعجبتني كثيرا، كلّها أحلام رائعة. ثمّ واصل كلامه: أنا أيضا لديّ أحلام مشعّة كالوميض المنتشي، حلما أن أكون

فنّانا تشكيليّا مبهرا، أنحت الحياة والجمال، وأخيط سحر الأزهار التي تفتحت أنوتها على شرفات هيفها وهي تمارس إغواءها على النّدى، وحلم الفراشات التي تراخت للضوء تمتص رحيق مسمّم من العطر، وشذى الحقول الذّي يرتشف من همسات أغنيات الرّبيع نايات من سنابل تتجمّل، وامرأة الرياحين التي تجوب مواطن الجمال وهي ترمي قبلا زهريّة على مقل الشّمس.

قاطعه "رضا" قائلا: أنت تبالغ يا صديقي، كفاك أحلاما عاريّة، اترك لي مساحة البوح من فضلك، حلمي هو أن أكون مفكّرا كبيرا أنير حياة النّاس وأغرس الفكر المتنوّر في قلوبهم قبل عقولهم. وأنت يا "صهيب" ما هيّ أحلامك؟

نظر إليهم "صهيب" قائلا: تعلمون يا رفاق أنّني أحبّ رياضة كرة القدم، وأمارسها في الشّوارع، حلمي الأكبر منذ الصّغر أن أنضم إلى فريق "برشلونة"، وأصير لاعبا مشهورا.

تبسّم الرفاق قائلين: إن شاء الله تصدق أمنياتنا.

مضت اللّحظات في بذخ، وتواصلت حكايات العصافير المغرّدة وهي تنشد أملا وحبّا في الحياة وبث أوراق قرمزيّة العطاء. ومضى الرّفاق يجوبون أساطير المدينة واهمين أنفسهم بتحقيق أحلامهم ورغباتهم ومضوا يقتنصون من العمر لحظات من الزّمن الجميل.

استمرّت ليالي الألق تقام كلّ مساء لمّا يبعث اللّيل رو ائح السّمر فتهطل الحكايات الندّية، وكان نسيم الفرح يعبق وجوه الأصدقاء ر افعين شعارالأمل والتفاؤل.

الأحلام مهما كبرت إلّا أنّها تظلّ صغيرة أمام قوّة القدر وجبروته وصفعاته، لم تستطع خيوط الحلم الشّفيفة أن تقف أمام جموع السّراب والوهم، لقد توالت الانكسارات تعتمل أكثر في خوالج الرّفاق الخمسة حتى استعمرت كيانهم ولم يعد للهفتهم مكان أمام مقصلة الحياة الأليمة.

نظر "زكرياء" إلى رفاقه وعلامات الحسرة تستعمر روحه: لم يعد لفتوّة أحلامنا مسافة عبور أمام اغتراب انهزامنا، صرنا فعلا غرباء.

تكلّم "أيهم": صدقت، حقّا أضحينا غرباء حتى عن أنفسنا، غرباء عن مجتمعنا غرباء عن وطننا، غرباء عن الحبّ، عن الصّخر والحجر، عن الزّهر والعطر والعمر.

نطق "جهاد": خطرت في بالي فكرة أظّنها قادرة على إنقاذنا من بر اثين هذه الحياة القاحلة، ما ر أيكم يا رفاق بالهجرة أو الحرقة؟

قال "رضا": كلامك صواب، الهجرة لا أظّن، ظروفنا المادّية متدهورة، الحرقة هي الحلّ المناسب، لم يعد لنا مكان في هذه الأرض

الجوفاء، لا أحد يسمع لمناجاتنا ولا لصراخ ذاكرتنا التي شاخت وتاهت وسط كومة خراب الموت البطيء ووحشة الحياة.

تكلّم "صهيب" صدقتم يا رفاق، سنحرق إلى اسبانيا، سنحقّق أحلامنا هناك سأتمكن من الانضمام إلى فريقي المفضّل.

اتفق الرّفاق على ركوب الخطر وتسلّق أمواج البحر لعلّهم يخيطون أحلامهم في فضاء آخر يعتصر فراغات شغفهم، سنكون كالسّندباد نجوب خلجان المغامرات سيُسمع صدى أصواتنا من وراء البحار، ناثرين عبارات: الحلم ... أن تضع على كفّ الشّغف... أفانين من وهج المستحيلات.

ارتدى اللّيل ستائر العتمة ومدّ راحتيه لفراغات الدّهشة، وكان الغراب الحزين يجوب تضاريس الوجع يفتّش عن تعاويذ البهاء لعلّه يمنحها لمكتسحي الدّجى الذّين اكتحلت عيونهم بكحل الخيبات والخرافات، وهناك في الضّفة المقابلة ضفّة الألم التي تفتحت إغراءً و أقامت جسور الاحتفال بمستعمرات جديدة للعشّاق، قدّمت طقوس عهرها على عتبات البحر الذّي كان مستسلما لحبق أنفاسها، التي أفرغت على عبابه تحف موسيقيّة من الفناء المتجلّي.

امتطى الرّفاق هودج أشواقهم، وبحر أمنياتهم، وكان كلّ واحد فيهم يحلم بحياة آسرة، سأصير غدا نجما ساطعا أرسم أطياف النماء

والسّناء، سأسير على خطوات البحر كطائر متجمّل بالرّغبات المحمومة، سأصبح علاء الدّين العطاءات.

مرّ اللّيل ثقيلا على الرّفاق، واستمرّ مسلسل الأحلام يتدفق على صفحات البحر، وعبابه المتبسّم يرسم حكاية السّراب المحفوفة برذاذ النّهايات.

- آه يا صديقي، سيحلّ يوم جديد، ستركع لنا الأمنيات في خجل، ستشرق نجوم بهجتنا وينتشي العطر ويوشم على أفئدتنا محمّلا بالعنفوان وشطحات الرّغبات.

واصل الرّفاق سرد مشاهد شغفهم، واستمرّ عباب البحر يكتب نهاية طيور مغرّدة اقتنصت أجنحتها على ضوء سحر الوجع، والذّكريات الشّاغرة.

انجلى الصّبح ومنحت الشّمس جسدها إشراقه الدفء والأشواق، أمّا في المكان الآخر كان الوحل المحموم يتساقط رذاذا حزينا على ضفاف البحر الذّي وهب آخر مشهد للأفول.

ترامت صور الجثث الخمس تغتسل بروائح أحلامها خواطر الحزن، وهام الموج يقذف حبابة الماء على حافة الانكسار، وتفجرت مآقي الرّمال الحزينة تنوح في ضبابيّة الوجع.

كم أنت ساخر أيّها البحر؟ كم أنت مجرم؟ قتلت هذه الأرواح السّخيّة قبل أن تتوردّ حمرة فرحها في حدائق العمر.

ابتسم البحر في سخريّة جامحة قائلا: هذا أنا، أملك مصباح الأمنيات والرّغبات متعتي لما أنتشي على جثث المساكين، ارتشف من ثغرهم سمّا لذيذا، ثمّ أشار إلى تلك الجثث العابسة: هؤلاء مضوا يقتنصون الزّمن في غموض جنوني، كانت شهواتهم تكدّس يقينهم، أسرتهم ألوان المستحيل فهزمهم قهري.

كان حقّا مشهدا مؤثرا، أيّتها الأرواح الماكثة في يقينيّات السّؤال، ألا تعرفون أنّ عبور مسافات المستحيلات محكوم بأغلال قهر القدر، هي حقّا جريمة بشعة حبلى بالعذابات.

امتلأ المكان بالصّقيع وتعال صراخ الأمواج يعبر مسالك السّماء حتى تراءت النّجوم معلنة ميلاد حلم جديد. سأكون غدا هناك أغتسل بدموع فرحي، سأجوب مدارات الذّاكرة وأعبّق الفضاءات زهرا من بنفسج الرّوح الذّي لا يندمل، وأشرق قنديلا في دهاليز الذّكرى، سيسمعني البحر من جديد، سأكون موسما جديدا فلتهرعي يا رياح، أنا قادم كالبركان أحمل في دمي صبر أيّوب، وطوفان نوح سأكون كالحرف السّخي يمنح بريق الألق للكلمات، سأكون همسة ربيعيّة تعتصر حلم مواسم الخريف.

أوراق من ذاكرة الحياة

الحياة محطّات مسافرة، تارة تنثر في خوالجنا فرح اللّقاء والبهجة الغنّاء، وتارة تبثّ في تضاريسنا عتمة اليتم وحروب الجفاء، هذه حكاية خطتها أنامل الحياة بكبرياء جارف، حكاية أرواح أسرتها حماقات الغياب وصراخ الأزمنة السّاخرة، وتيه المجهول.

جاء الأصيل باردا على غير كعادته وعلى شفاهه صرخة، يحاول أن يقصّ على مسامعنا حكايات اعتصرت مرارة الوجع المنتشي حتى الثّمالة بحروف الألم والنّدم.

كانت في تلك المدينة عائلة اغتسلت من نيران الخلافات بين الوالدين "سعيد" و"سماح"، فكلّ واحد منهما يريد أن يعيش حياته حسب أهوائه دون الإحساس بالنّتائج الوخيمة النّاجمة عنها خاصّة على أبنائهم " إيّاد" و"إشراق"، و"نور".

كان الخوف والعنف هما عنوان تلك العائلة، التي التحفت بلون القتامة والجرح المكدّس في الذّاكرة المعنّفة، فالأولاد كلّ يوم يعيشون الأوضاع نفسها وهذا ما أثّر على شخصيتهم ونتائجهم المدرسيّة، ف"إيّاد" أخفق في النّجاح فقرّر عدم العودة إلى مقاعد الدّراسة رغم أنّ عمره لا يتجاوز السّادسة عشر، أمّا "إشراق" أكبرهم ذات الثّمانيّة عشر عامًا قرّر والدها تزويجها لأحد أثرياء المدينة من أجل تحقيق مآربه الشّخصيّة، أمّا "نور" فرغم الجراحات التي تناسلت في داخلها إلّا أنّها

قرّرت رفع التّحدي اتجاه خيباتها في الدفء العائلي وصمّمت على تجسيد كينونتها.

كان الوالد كلّ يوم يدخل ليلا سكيرا ور ائحة الخمر تفوح منه، وينادي بصوت مرتفع: يا امرأة، أين أنت؟ فتأتي الزّوجة مسرعة فينهال عليها ضربا، فتبدأ هنا المشاكل والخلافات الأسريّة.

وذات يوم جاء مسرعا وهو يتكلّم بصوت مرتفع: سماح، فتهرع الزّوجة مسرعة، فيفاجئها: غدا ستخطب ابنتك، حان وقت زواجها.

- يا رجل، البنت لا زالت تدرس وهي مجتهدة في دراستها، حرام أن...

(قاطعها قائلًا): البنت لا مكان لها إلّا في بيت زوجها، هذا ما عندي من كلام اخبري ابنتك.

فاتحت الأمّ ابنتها بموضوع زواجها فرفضت البنت حالا هذا الموضوع، ولما أخبرت الأمّ زوجها ثار في وجهها، وأخبرها بأنّ قراره نهائي لا رجعة فيه.

- غدا سيكون زواجها من الشّيخ "إسماعيل" فحياتها معه ستكون أجمل، لا داعِ للتّفكير في الدّراسة.

تكلّمت " إشراق": أبتِ...

قاطعها قائلا: غدا سيكون زواجك وكفى.

هطلت دموع الألم والحسرة من عيني "إشراق" كالغيث، وكأنّ الحياة توقفت أمامها رأت غرفتها تتلوّن بلون العتمة، نظرت إلى المرآة قائلة: الحياة لم تكن يوما منصفة في حقّي، من صغري و أنا أنزف قهرا ووجعا، كلّ خرائط الجرح كانت تشرق في تضاريس روحي، ماضيَّ كان صفحة من الانهزامات، حاضري صورا من المعاناة مستقبلي لن يكون أرحم منهما.

أيّتها الرّوح المفعمة بندى المحبّة وعطر الحياة سأغادرك لابسة أحلامي الورديّة وضحكاتي الزّهريّة وصفحاتي العذراء، سأتحوّل إلى شظايا على أن أعدم في محكمة الحياة، سآخذ رسائلي المهفهفة و أقلامي البنفسجيّة لأكتب أحلام حياتي في عالم يرتدي الأبيض، وداعا أيّتها الحياة، وخطّت رسالة كتبت فيا بدماء تعثراتها، ثمّ نظرت إلى المرآة فابتسمت في كبرياء ثمّ منحتها تذكرة السّفر، ارتشفت "إشراق" آخر ما بقي لها من حلم ثمّ تمدّدت على سريرها ونامت.

سآتيك الآن يا حلمي مرتدية برنوس الزّهو والعطاء، سأخطّ على أهدابك فيوضات من نوى عمري سأكون نجمة في عالمي الوحيد.

دخلت " نور" غرفة "إشراق" تزّف لها عبق الانتصار في الدّراسة فوجدت أختها نائمة وهي مبتسمة حاولت إيقاظها لكنّها لم تستطع، صرخت بقوّة حتّى عمّ صراخها المكان: أمّي، أمّي، أمّي.

جاءت الأم مسرعة: ابنتي... تلمست جسدها فوجدته باردا، تصاعدت دموعها ابنتي، لماذا؟ ماذا فعلت بنفسك؟

لمحت "نور" ورقة على طاولة كتب "إشراق" قرأتها بسرعة: "أمّي، أبي، إخوتي إيّاد ونور أعلم أنّ فقدانكم شيء يعذّب روحي ويرهقها، لكن الحياة خطّت قصّة بدموع آهاتي، لا أستطيع أن أتخلّص من أحلامي وأمنياتي من أجل الزّواج، سامحوني.

لقد شكلّ رحيل "إشراق" ضربة موجعة هتكت روح تلك الأسرة، فتلوّنت حياتهم بلون السّواد، كانت أشباحها تسكن المكان معاتبة، وكانت غرفتها مساحة أحلامها تختزل أوتار فؤادها الرّنيم، ساعات عشقها للنّجاح، كتبها التي كانت تؤنسها كلّ ليلة، وبرحيل عاشقة اللّيل السّاحرة امتلأت حنايا الغرفة بالفناء، وكانت حمائم الذّكرى السّوداء تحلّق كلّ ليلة هناك، وكانت "إشراق" تزور أحلامها كلّ ليلة ثمّ تغادرها مع شروق الصّباح.

مرّت السّنوات ثكلى وترامت المشاهد السّمراء تشعل محرقة تلك الأسرة التي ما زالت تخيط المشاكل يوميّا.

كان "إيّاد" يعود كلّ مساء من عمله ليجد أعراس العراك تقام في منزله، عويل والده الجائع لدنانيره، فيقوم الولد البريء من مكانه ويمنح

والده ما كسب، وهكذا دواليك حتى اكتسح الوالد المنزل وتخلّى عن عمله و اتّكل على ابنه في إعالة العائلة.

مضت الأيّام متسارعة والمنزل لا يزال يعزف على أوتار الصّراع والعراك، وذات يوم رفض "إيّاد" أن يمنح والده النقود ولو فلسا واحدا.

- قلت لك هات كلّ نقودك.

- لن أمنحك شيئا.

- قلت هات، ولا تجادلني.

ولمّا رفض الابن منح أبيه النقود، ناوله ضربات متتاليّة غزت وجهه وجسده حتى احتلت الدّماء ملامح الوجه وكشفت عن اللّحم.

حمل "إيّاد" أشلاء روحه وجسده وقرّر الهروب من ذلك الغبار الذّي اكتسح حياته الآن سأطلّقك أيّها المنزل، فليظل ذلك الدّاء ينخر جسدك.

احتمى بالشّارع كملاذ يهرب إليه من دروب الغروب التي اقتحمت حياته، ولكن دوام الحال من المحال، تعرّف "إياد" على جماعة من الأشخاص أدخلوه عالم الفساد فتغيّرت حياته، فولج جحيم المخدّرات، لقد مارس الشّارع المسخ على روح الشّاب البريء فتحوّل إلى خارج عن القانون، لكنّه بين الفينة والأخرى يتذكر ذكريات حياته فتتدفق الدّموع

كسيل جارف من عينيه، ويتذكر بقايا الصّور التي لا زالت تستعمر ذاكرته.

يشدّه الحنين تارةً إلى عائلته فيقرّر الهروب من هذا الوباء، لكن لما يتذكّر صورة والده الذّي قتل فيه عنفوان الفرح ونور الحياة، فيعلن حربه على تلك الذّكريات ويتناول سيجارة النسيان.

تغيّرت حياة الأسرة بعد رحيل " إيّاد"، عمّ النّدم أرجاء البيت، تنازل الوالد عن معركته التي أزهقت حياة اثنين من أبنائه، أمّا الأمّ فقد دخلت حالة هوس لا تعِ ما تفعل وما تدري، ولا يسمع على لسانها سوى كلمات: براء، براء، براء.

كانت صور الذّكريات تجتاحها بين الفينة والأخرى لتعلن مستعمرات النّهاية والانهزام، وتيه الأسئلة المتناحرة التي تعانقت كسمفونيّة مغردّة أحز انا استعجلت الذّهاب ولم تنتظر موعد الوداع.

أمّا "نور" الفتاة التي قررت أن تحارب جيوش الأسى والحيرة، قررت أن تسبح في عالمها الحالم، ترسم أمانيها على أنامل الحياة، كانت تنظر إلى السّاعات الهاربة وتغرق في عينيها وتخترقها لتوقف مسار هبوبها.

بقي "إيّاد" يصارع لحظات ماضيه وحاضره، لكنّه قرّر أن يلبس ذاكرة ماضيه ويعود إلى منزله وفي خوالج روحه تقطن سعادة غامرة،

الآن ارقدي يا ذكرياتي الحاضرة بسلام، فقد قررت الذّهاب إلى ماضي الذّي افترشته بالنّسيان والحسرات، لكن سأتحدّى الألم الذّي غرسه فيَّ والدي، سأزيل غبار الأيّام الرّاحلة وأرسم على شفاه عائلتي بسمة الفرحة.

كان الفتى يستعيذ صور ذكرياته، وكانت عقارب التيه تلاحقه، تلاحقت خطو اته وكأنّه أحسّ بشيء يلاحقه توقف... توقف... توقف.

استدار وراءه فرأى سيّارة الشّرطة وأصوات تناديه: توقف، استسلم وإلّا سنطلق عليك الرّصاص، نظر إلى السّماء فرآها اكتست بنجوم الفرح والجمال، ثمّ نظر صوب منزله فبصر من بعيد صورة والدته وأخته فمضى نحوهما يشعل فتيل خيوط اللّقاء التي عصفت بها ذكريات الانتظار.

- توقف... توقف... توقف.

واصل "إيّاد" طريقه بعد أن رأى شموع البياض تملأ جسر أحلامه، الآن سأرى أسرتي وهمّ بطرق الباب غير أن رصاصة الموت اخترقت جسده لكنّه ظلّ متشبثًا بنور اللّقاء، الآن أنا سعيد، وضع همسات أحلامه وتواريخ الانتظار على قناديل شرفات المنزل الذّي كان يتزّين لاستقباله من جديد.

سقط الولد كالصّخرة، وعادت أمنيات الانتظار تغتسل الأرض، أحسّت الأمّ بصوت وليدها يناديها، فهمت مسرعةً فتحت باب أحزانها: ابني... ابني... ابني وانساقت هواجس الذّكريات الماضيّة تتراءى في كوابيس الموت.

تمدّدت الأمّ على جثّة وليدها تنوح نوّاحًا هزّ المكان حتى امتزج مع الدّماء ليشكلّا سيمفونيّة حزينة، وهمست في أذن ابنها: الآن سأنام كفراشة حالمة على ضفاف جرحك يا بني، سأفنى على عطر دمك الفوّاح ثمّ استسلمت لحشرجات المدى.

خرج الأب وعينياه تحملقان في الجثّتين اللّتين توهجّتا بتراب الأرض، تأملّ مشهد ابنه وزوجته الذّي التصقت أرواحهما البريئة ببعضهما البعض في حميميّة بريئة، نظر إلى تلك اللّوحة التراجيديّة لعلّه يتوسلّ الوقت أن يتعثّر في مسافات مروره ويعلن استسلامه، حملق جيّدًا في تلك الصّورة الصّامتة التي توغل في ندوب الجراحات تقدّم صوب زوجته وابنه وتوسّد ظلّ حناء فاجعتهما، أغدق عليما قبلا ممزوجة بهيج المآتم، ثمّ اقتفى أثر طيف الخطوات، ينتعل الوجع المترملّ، متلمسًّا ستائر المجهول.

حروف الظّل.

كما السّحر المكدّس في قدس السّؤال
كما الزّهر المفرخ في عرس الأكوام
كما الدّم المتبرّج على أنامل قبل الهدير
كما العيون تقذف ورود شبق الحنين

كان ذلك الكاتب المفتون بكتاب اللّيل، يفترش عرشه المنجلي على أشداق مستعمراته، يقطف حروف عندليب روحه ليشعل منها فتق أوراقه، تغتال فؤاده نوايا تخوم غربته فيرضع من نهر لهفته مرق صرخاته الناسكة في محراب فجائعه.

تهرع إليه مواجع تساؤلاته: أيّها الكاتب البائس في شروخ الدّروب ترجلّ في كبد المكوث، فشجون حكايات الصّدى تلتهمها أسارير الوميض الهارب.

كانت تساؤلاته توقظه من اشراقاته الصباحية، تغرقه في مواسم خيباته، يحاول أن يحارب صيحاتها المتردّدة لكن سرعان ما تهرب الأمنيات من جفونه، وتبرّج الشّغف من فؤاده، فيبك حسرة ضياعه.

يقف أمام طقوس عبراته المرتجفة، يشّم رائحة سنين عمره الفاصلة، لم يبقَ لي غير حروف الظّل هذه تنسج كياني عتمة. رغباتي هجرتني، جسد الغسق يرتشي حروفي ويدفعها لجراح غائرة، كلّهم باعوا

جموحي. صار عرش شموخي يحبل بخبل عذابات النّوارس، كفّوا عن مضاجعة رعشة قصيدي، كلّ الاحتفالات هبّت بالاحتراق على نعش وريدي.

يستلّ قلم كبريائه، يأخذ من دفاتر ذكرياته قراطيسًا، يشعل قلمه بشموع عبراته المتقدّة ويشرع في عمليّة ترويض مشاعره: أيّها القلم المتوهّج تعال وعانق بياض ذاكرتي، الآن سأشرقها حرارةً تغتسل قروح بشرتها الرّماديّة.

ابتسم القلم وجنح بمداده ليغرق أجنحة البياض، ويلوّثها من وفاء إلهامه: لا تكترث لجرس ارتجافات السّفر، من اليوم سأصير رفيقك الحميم أيّها الكاتب العاثر...

رسائل الشّوق

كان ظلّها المفتون بالشّبهات نائمًا هناك على مقبرة أحزانه واللحظات الجائعة للقتل ترهبه، فتهرّب ذكرياته المخمليّة إلى الأزمنة العذراء.

افتتح ذكرياته وهو يلقي عليها من دماء فاجعته حتى امتزج الدّمع بالبياض مشكلًا مشهدا جديدا للأفول

انهضي يا أمّاه انهضي، ثمّ بدأت جداول البكاء تنسكب وتنهمر.

تهرع أمامه صورة أمّه وهي تتأّلّق خلف الستار، تعال يا بنيّ تعال...

- أنا آتي يا أمّاه.

يندفع بسرعة ناحيّة السّتار، محاولًا القبض على لحظة سعادته في لقاء والدته بعد عام من الغياب، غير أنّ رماد الألم عاد من جديد ليحرق أنفاسه المخضّبة بالأنين.

خلع ستائر ذاكرته وهمّ لمعانقة ماضيه، افتتح صفحات الذّكرى وعاد بذاكرته إلى تلك الأيّام الحسناء التي اغتسل فيها حبًّا وتحنانًا. كان صوت أمّي المتدفق الصّافي كالشّلال لا يعرف الانقطاع، كان كأغنيّة شجيّة ممزوجة بالألق يطربني كلّ يوم فأهرع إلى حضنها البهيّ، أتنفّس نعومتها الفيّاضة. كانت أمّي تحبّ قراءة الأدب الإنجليزي، مولعة

بمسرحيات الكاتب الكبير "ويليام شكسبير" كانت تحضر المسرحيات التي تعرض بالمسرح، كانت شغوفة جدًّا بالفنّ.

لكن لم تكن تدري أنّ حياتنا أشبه بقصّة مجنونة، تفاصيلها منثورة همساتها مبتورة لما تحلّ الأحزان تستعمر تضاريس أرواحنا، فتتبّلها وجعًا وقهرًا. حلّ ربيع الوجع ملبّدًا بغيوم الجراح، اكتحلت حياتنا سوادًا، وارتدت لبوس الموت، لم يرحم زئير الاحتراق نعومة أمّي آخر حلم ما زال يسكنني.

رحلت أمّي وهي تحمل داخلها فرحًا مستنيرًا، رحلت وهي تغمرني بفيض عذوبتها: ابني حبيبي، خذ مسرحياتي المخبئّة في تلك الجدران الرّثة، وسمّعها للأجيال القادمة، حلمي أن أرى أفكاري تتوقّد عبرك، اسقها بشغفك، سأموت بنيران التّمرد، حلمي أمانة عندك.

فارقت أمّي الحياة بقنبلة طائشة فجرّها أبناء الوطن، الذّين استكثروا رؤية وطنهم آمنا، مستقرًا، كانت عائدة من المسرح وهي تحمل داخلها حلمًا بنجاح عرضها المسرحي.

الحياة تتخلّى عنّا حين تستعمرنا حماقات الغباء تفترس خوالجنا فتنثرها قهرًا ووجعًا، رحلت عنّي أمّي ملهمتي ووقود مقاومي، تاركة حلمها الكبير ينتشي داخلي، تركت بلادي مكرهًا لا مخيّرًا غادرت مرتع صباي وشغفي وهربت إلى المهجر الأوروبي بحثًا عن سعادة أمّي، وتحقيق

حلمها قبل البحث عن ذاتي وتحقيق سعادتي سجلت في معهد الفنون الجميلة بلندن، قسم مسرح، وتماهيت في دراستي إلى درجة العشق، كنت كلّما أتقدّم خطوة تتراءى لي صورة أمّي مبتسمة، وفرحة.

تخرجت من معهد المسرح وحصدت أعلى الدّرجات، وشكّلت مع جماعة من الشّباب الطّموح فرقة مسرحيّة سمّيناها "كواكب لا تنام"، كان يسكننا شغف تحقيق نجاحات غير مسبوقة، نجوب بفرقتنا المسرحية أرجاء العالم، ونسمع النّاس صدى رسائلنا، كانت أوّل النّصوص إلهامًا لي نصوص أمّي الجميلة المعبّقة بنسائمها اللّطيفة، حوّلناها إلى عروض مسرحيّة لاقت نجاحًا مبهرًا جدًّا،عشقها شعب إنجلترا لأنّها كانت تحمل بعضًا من روح أسطورتهم "شكسبير".

جبنا بفرقتنا أنحاءً كثيرة من العالم، وجئنا إلى البلدان العربيّة التي كانت بعضًا منها تشهد احتقانًا سياسيًّا كبيرًا، وتناحرًا إنسانيًّا قتل ذوات الإنسان، وسلخ روحه المتطّلعة للبهاء والأمل، عرضت المسرحيات وحصدت الثّناء والنّجاح، واستطعت عرضها في وطني الذّي عدت إليه وأنا أحمل بذور النّجاح والتّفوقّ، والذّي تخلّى عنّي بسبب طيش بعض الأبناء العاقين، عند انتهاء العرض المسرحي وصنعه مشاهد بهجة وفرحة داوت بعض الجروح ورسمت بسمة على شفاه المحرومين والمعذّبين، صعدت فرحًا أنثر حلم أمّي سأخبركم عن كاتبة هذا النّص،

هي ابنة هذا الوطن الأبيّة "نداء أمين" أمّي التي رفضت هجرة وطنها، وقاومت بقلمها وفنّها لرؤية السّعادة تتدفّق وتنهمر، وتهمس في دواخلكم آيات السّحروالجمال، أمّي شهيدة الوطن والقلم.

وبينما كنت أعرض تلك الكلمات المغتسلة عسلًا وسحرًا، تراءت أمّي داخل ذلك المسرح ترتدي فستانها الأبيض، حاملة في يديها مشعل سلام، مبتسمة في بهاء العظماء، تهمس برقّتها العفويّة: لقد نجحنا يا حبيبي.

التفت صوب صورتها، محاولًا القبض على لحظة سعادتي المثلي فبان لي نور باذخ في الألق، تتبعته وأخذت أركض حوله في كبرياء.

مدينة الأشباح

وجبت المدينة السّمراء
أفتّش عن تعاويذ البهاء
فراودتني قناديلها
وقفت أمام مدارات الهروب
فبانت مواسم الوصل الموشّح
بدماء قناديل الحناء
ولاح الخفّاش التّعيس
يكلّمني عن دفاتر الرّحيل
وعن غرباء اكتسحوا الفتوحات
ومعابد روضتها الغاويات
وخواء نسل في تضاريس المدى
قصائد ممزقة الشّفاه
وقوافي امتطت المأساة

كان يعبر فراغات اللّيل يختلس منه بعض النّظرات الجارفة، وخطواته المتناثرة على سفوح ذاكرته الثّكلى، مرّ على شوارع مدينته التي استسلمت لضوضاء مواويل القناديل، وقف على أطلال رماد تهجيّ نهاراته يناجي تلك الأشباح التي تلونّت بمرج السّفور، انهض أيّها السّندباد، أيّها المغامر الجسور، كلّ الفتوحات بعد تبدّدت على نزيف

الذّاكرة، انهض و افتق جفون العهر التي تبسّمت و ارتمت على تواشيح زماناتنا، انهض فعطر النبوءة والقداسة جفّ في مراعي صبابتنا، ودفء الزّهور غادر مرتع الفراشات، فعلى شرفات الصّمت المخصّب بالأنين صرنا أكثر اختمالا.

كانت عيون شيخ المدينة تترصّد خطوات الشّاب وهو يشهر سيف غضبه في أعداء مدينته، كانت حروفه المتهجدّة تصرخ من شدّة العياء: يا بنيّ، يا شهريار، أعدت لتنقذ مدينة الأشباح؟

- أيّها الشّيخ الحكيم، لقد تفتحت خيوط الظّلام تنسج خرائط هذه المدينة، لم يبقَ من العبق الملكي الشّهرياري ما يعيد لهذه المدينة عذريتها وحلّتها.

- يا بني، أنظر إلى هذه المدينة التي أضحى السّراب يفتل حاضرها ملحا مبتلّا، وجرحا على أنامل الشّوق مستلّا، ولجج الصّهيل تفتق في أهازيج صبواتها وحل الظّلال.

التفت الفتى إلى الشّيخ وهو يحتلب من تلك القناديل صيحات ضياء، و زهر حرائق الغيم لعلّه ينثرها على أعتاب أهداب تلك المدينة التي دفنت الحلم وهو يلقي صداع نواحه ويقاوم هشاشته.

أيّها الشّيخ الجليل، لم تعد حكايات شهرزاد تغري مفاتن طلوع الصّبحات، منذ أن كفت شهرزاد عن نشر رذاذ فرح ورماد فوضى تلك

العيون التي قبست بمتاع المستحيل، مصباح علاء الدّين تعثّر على سلالم الخطوات، ودروب الفجوات، فعلى شرفات العمر صُلبت تواشيح براءتنا، لم تعد الملائكة تغرّد في صفوتنا، فاللّيل قد أشرع ندوب الوقت على زبد الفتوّة.

نظر إليّ الشّيخ الحكيم قائلا: اشرع يا شهريار، وأشرق من عتمة التجلّي قصصًا من جنح الفتوحات، فشهرزاد لا زالت تنتظر قصص زهر الرّغد أمام أغادير غيداء.

فجأة، تلاشى مرق اللّحظة، نظرت إلى وجه الشّيخ فلم أبصر إلّا شبحًا توسدّ من بهو السّراب، نظرت خلفي أفتّش عن ظلّه المسكون بالشّهب فراودتني أشباح أخذت تلهث ور ائي في حبور وهي تلقي حروف نحر مواجعها أنقذني يا شهريار...

حلم الفراشات

نسيم الشوق يعلو في سماوات أوردتي يتمدد على تجاويف الصّبا والأحلام الممزوجة بغبن النهايات التي تركت تفاصيلها هناك أمام محكمة تواريخنا المهرّبة إلى أزمنة القهر.

أنا أمل، كنت أعيش في عالم الضّياء، ألّم ستائر الأحلام الدافئة وألاعب خصلات دميتي الجميلة التي تلونت بأطياف الألق، وأخيط من بهجتها حلما أسكن تر انيمه و أنام على تحف نغماته الهزجة بماء رياحين الضّياء...

كنت أحلم أن أعبر مسالك شغفي، ألامس مرافئ وطني، أشّم عطر البهاء يتدفّق وينفجر كمقطوعات آسرة لكن مرافئ روحي تلوثّت بقنابل الحناء التي غمرت حنايا تضاريسنا المهشّمة، وروائح العهر تنبعث كلّ مساء من مدن الصّمت...

كانت صديقتي " ضياء" تداعبني كلّ مساء بصوتها الرّنان، تنسيني تعثراتي الحبلى بخبل الانهزامات والانكسارات، تنشدني أجمل القصائد اللذّيذة عن الوطن "موطني! موطني!

الجلال والجمال والسّناء والبهاء في رباك

والحياة والنجاة والهناء والرّجاء في هواك

هل أراك سالمًا منعمًّا وغانمًا مكرّمًا

هل أراك في علاك تبلغ السّماك

موطني! موطني!

كانت هذه القصيدة الوطنيّة تختزل مواطن جرحنا، قهرنا، تذكرت أنّ نبوءة الحلم في بلادي لن تلامس طلوع الفتوحات؛ لأنّها بيعت قبل أن تبعث يقينياتها، كلّ الأحلام في بلادي عاريّة تتماوج أمام شرفات اليقين ثمّ سرعان ما تغازل عباب المستحيل، نحن هنا كفراشات حالمة نخيط من جراح أوردتنا ضوء يرحل بنا إلى مرافئ السّحر، لكن سرعان ما تبتر خيوط حلمنا بجراحات العذابات والحسرات.

في هذه الأوطان المبتورة بصدأ الهشاشات ضاعت تعاويذ ألقنا بين تراتيب الصّمت و أخاديد الرّحيل لم يبقَ إلّا الوحل ينسج حاضرنا قتامةً وجرحًا مهرّبًا.

كنّا نعيش في بلداننا العربيّة نفترش مرايا الأرض وننام على أوتار العشب وحفيف الزّهر المغرّد يغازل عباب عبرات عيوننا التي تستسلم لعطره المترنّم فنكتسي اشراقة سندس متوقد، والشّمس الحبلى بروائح الاصفرار تشرق بهجتنا، وأغنيات الأصيل تتدفق إلى حنجراتنا فنلتهب أكثر وأكثر، وننحت ضوءً شفيفًا يأخذنا إلى جنّات الهناءات والضحكات...

فجأةً تقترب غواية الدّموع من جفونها فتشتعل أكثر وتتناسل حتى تغمر المكان رذاذا بريئا، تمسح دموعها البهيّة في ألق ثمّ تواصل حديثها:

كانت السّعادة نشيد روحي أتوسدّ فرحا وأنا أغتسل بتراب أرضي بين أهلي وأصدقائي، وكانت نسائم الوقت تلاطفنا بين الفينة والأخرى، نحضنّ أوراق الشّجر لنخطّ عليها ترانيم صداقتنا.

تسكت لوهلة، ويعمّ الصّمت مدينة أحلام أمل الدافئة، ثمّ تعقب قائلة وهي تسرد لنا تفاصيل ذاكرتها الليّلية: كنت مفتونة بعوالم ألف ليلة وليلة، ألّم كلّ ليلة حكايات شهرزاد وشهريار وأستلهم من قصّة عشقهما عطر الصّبابة وفاكهة الرّغبات وبخور الأمنيات لأصيغ بها وطني الأكبر...

تتساقط الدّموع من جديد كشلّال وتشتعل أكثر مواجع " أمل" لتتصاعد تنهداتها الصّارخة وهي تروي مواطن وجعها، وتشرّح دفاتر خيباتها، قُتل وطني أمام عيني يوم ترامى وهمّ الحكايات جانبا، وحلّ ربيع الاحتراق ينزف قهرا في تضاريسنا، ويبثّ صيحات الهواجس التي كانت تستعمرنا منذ وقت تجلّي نهارات الانهزامات.

أضحت حياتنا مثل العبث، نحتلب فيوضات أحزاننا، وقنابل الألم تغزو سماواتنا اليتم أضحى شريعة جديدة للأطفال، يُوشم على صدورهم، بهجة الحياة غادرتنا والأحلام ارتدت رداء الرّحيل، حلمنا العربيّ تناثر كالسّهاد في لياليا المحترقة. صار القلم أنيس جرحي صرت

أكثر توحدّا معه، وصراخ بياض الورق يرهقني بالعثرات وعبث الكلمات يلتصق في شبق جريح بأنين الحرف المنتشي بجراحات أرخبيل مدامعنا.

عبثًا

كنّا هناك

على حافة ذكرياتنا

نتأمّل سنين العمر

و هي تختلس من أمامنا

و تهوى من جسر أمانينا

عبثا

تتملكني رعشة الانهيار و أنا أرى جثث أهالينا وهي تتبعثر أمام مقصلة الحياة تقطف بهجة حياتهم، والعرب يمرّون بين مسافات الأنين يتفرجّون على مسلسل الوجع الذّي امتدت حلقاته ترتشف أحداثها من مشاهد الحلم المصلوب على حبل الوريد.

أخذت منّي الحرب أغلى من روحي أحبّتي، أهلي، جوهرة روحي صديقتي "ضياء".

أخذت منّي مواطن الاحتراق شغفي، حلمي، عذوبة أنوثتي، أغاني سحر وطني نثرت في دروب ذاكرتي مراعي من تعب الرّوح، وتوهجّ شعلة الانكسارات.

نظرت إلى دميتها القزحيّة وحضنتها بدفء متوقد، وأغدقت عليها قبلا زهريّة وحملت كفن الشّوق وراحت تجوب مواطن الاحتراق التي استسلمت لإغراءات مفاتن الرّحيل، مردّدة آخر ما نثرت على كفّ الجرح.

على شرفات الغروب
المخضّب بالأنين
امتطى البوح
غفوة الرّحيل
وحطّ الغراب الحزين
على مواسم الفتوحات
نواح تهجّد اللّيل
وهشاشات شغف يسيل
على وريد حلم مبتلّ
فاجعة أخاديد الشّوق
الذّي تراخى للأفول
وعثرات فراشات
في رذاذ الزّهر تنسلّ.

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية و أفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017